الخصائص الأدبية في شعره

ان الأمم تختلف في أساليب تفكيرها ، نعلم ذلك مما نراه عندها من بناء جُمَلها وتراكيب كلامها وأنواع مجازها واستعاراتها وكناياتها — كل أمة حسب بيئتها وتطورها وثقافتها . وكذلك أفراد الأمة الواحدة فانهم يختلفون أيضاً في طرائق تفكيرهم ، قوة وضعفاً أو بُعْدَ غَوْرٍ وقرب مُتَناوَل ، كل حسب بيئته واستعداده الطبيعي والفكري وحسب ثقافته .

١ — خصائصه المعنوية

لم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في ابي تمام ؛ حتى قال النقاد عن شعره إنه معقَّد ؛ وعن معانيه انها مقتسرة مأخوذة بعنف . على اننا لو انعمنا النظر لوجدناه يفكر بطريقة صحيحة ، ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي . ان أبا تمام مثقف حافظ ، مطلع على الحركات الفكرية التي كانت في أيامه ؛ وهذه عناصر كلها تتضافر على صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريباً في نظر القارىء العادي ، وليس هو على الحقيقة كذلك . ثم أي فضل لشاعر — او لأي رجل آخر — اذا كان يحرك لسانه بما انتجته قرائح الناس ؟

ولقد صدق ابن رشيق حين قال[1] : « وانما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لم يشعر به غيره ؛ فاذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراعه ... او صرف

---

(١) العمدة ١ : ٩٦ .

معنى عن وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ؛ ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي ، مع التقصير ... » ثم قال : « وانما السبق والشرف في المعنى[1] ! » .

وإليك هنا مثالين من تقصير الناس في فهم معاني أبي تمام .

خطّأ الآمدي[2] أبا تمام في قوله[3] :

فلويتَ بالمعروف أعناقَ المُنى ، وحطَمْتَ بالإنجاز ظهرَ الموعدِ .

فزعم استعارة الظهر للموعد قبيحةٍ ، والمعنى المستخلص من حطم الظهر رديئاً[4] ؛ ولا أرى إلا أن أبا تمام تخيل أن ينجز الإنسان وعداً قبل أن يقطعه ثم يستغني عن الوعد مرة واحدة ، فيعطي المعتفين حالاً ، فلا يجري الوعد على لسانه . وكل ما في نقمة النقاد منه أنه نظر إلى المعنى من حيث لم يتعود الناس أن ينظروا إليه من قبل ، ودليلنا على ذلك قول أبي تمام نفسه[5] :

يرى الوعدَ أخزى العار ، إن هو لم تكن مواهبه تأتي مقدّمة الوعدِ .

وخطّأه الآمدي أيضاً[6] في قوله[7] :

يَقِظٌ ، وهو أكثرُ الناس إغضا ءً على نائلٍ له مسروقِ .

وكل ما في الأمر أن الآمدي لم يتعود أيضاً أن يرى النائل (العطاء) مسروقا. انّ ما يكون مسروقاً، في رأيه، هو المال المغصوب؛ أما ما يعطيه الرجل فلا يمكن أن يكون مسروقاً . ولا ريب عندي أبداً في أن أبا تمام قصد أن الشاعر يأخذ الممدوح بالشعر الجميل حتى يسلبه مالاً ما كان ليُعْطِيَه إياه لولا

---

(١) العمدة ١ : ٧٤ ، السطر ٥ – ٦ .
(٢) الموازنة ٩٥ .
(٣) ديوان خ ١١٣ .
(٤) انظر شرح الاسود ١ : ٢٦٥ ، امراء الشعر ١٥٥ .
(٥) ديوان خ ١٣٠ .
(٦) الموازنة ٩٩ .
(٧) ديوان خ ٢٢٠ ؛ سر الفصاحة ٢٥٠ .

هذا الشعر .

وعلى كل فلنذكرْ أن الآمدي ــ جد متحامل على أبي تمام، جد مُحابٍ للبحتري .

شغف أبي تمام بالإغراب

قال الآمدي في كتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » ، على لسان صاحب أبي تمّام : « إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه (هو) ، وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر »[1] . وكان مثال ذلك ما جرى يوم قصد أبو تمام عبدالله بن طاهر ومعه قصيدة يمدحه بها مطلعها : أهنّ عوادي يوسف وصواحبه[2] . فلما عرضها على كاتبين لعبدالله بن طاهر قالا له : « لِمَ تقول ، يا أبا تمام ، ما لا يُفْهَمُ ؟ » فأجابهما فوراً : « لِمَ لا تفهمان ما يقال؟ » . فكان هذا مما استُحْسِن من جوابه[3]. ثم انهما سرّا بأبيات منها سروراً حملهما على رفعها إلى عبدالله بن طاهر .

وكان في الآمدي تحامل على أبي تمّام ، ومع ذلك فاننا نجده يقول[4] : « ..... لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والاغراب فيها والاستنباط لها » . ولكنه يقول أيضاً : « وأبو تمام يتبهرج شعره عند التفتيش والبحث ، ولا تصحّ معانيه على التفسير والشرح »[5] .

ولا ريب في أن أبا تمام كان يوغل في طلب معانيه . ولقد أنصف كتاب أمراء الشعر[6] في نقل رأي ابن رشيق[7] : « وأما حبيب (أبو تمام) فيذهب لى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً أو كرهاً ؛

---

(١) الموازنة ٩ .
(٢) راجع هبة الايام ٢٦ وما بعدها ، ١٣٤ .
(٣) الموازنة ١٧٠–١٧١ .
(٥) الموازنة ١٥ .
(٦) ص ١٩٣–١٩٤ (الطبعة الثانية ١٩٦٠) .
(٧) العمدة ١ : ١٠٩ .

يأتي للأشياء من بعد . ويأخذها بقوة » ...

« و يراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها إلى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الإبهام ، فاذا كشفته بان لك جمال خلاب يستهويك ويزيدك ترنحاً بها . ومن هنا (تنشأ) هذه الصعوبة التي يعاينها من يطالع ديوانه ، فانه قد يقف حائراً أمام طلاسمه وغموض معانيه ، حتى إذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما يلذه من صور جميلة ومعان رشيقة[1] ».

كل شعر يبدأ نهضة فهو غامض : كذلك الشعر الجاهلي الأول ، فشعر امريء القيس أكثر غموضاً من شعر زهير للزمن الذي بينهما ؛ وشعر الطرماح أشد تعقداً من شعر جرير ! وكذلك شعر مسلم بن الوليد أحياناً ، وشعر ابن الفارض ؛ وكذلك أيضاً شعر شكسبير والروائيين الإفرنسيين الأول وشعر غوته سيد شعراء ألمانيا . ولعل أشعار فيرجيل ودانتي لا تخرج على حدود المبدأ الذي نتخذه .

أفنعجب بعدئذ ، إذا رأينا غموضاً في بعض شعر أبي تمام وهو الذي أوجد طريقة الشاميين ، وكان أول من حلى الشعر العربي بالصناعة اللفظية المقصودة ؟

فمن إغراب أبي تمام ، إذن ، قوله :

— وقد كانت الأرماح ابصرن قلبه ... فأرمدها ستر القضاء الممدد[2] .

— رقيق حواشي الحلم ، لو ان خلقه ... بكفك ما ماريت في أنه برد[3] .

— قد كان عذرة مغرب فافتضها ... بالسيف فحل المشرق الأفشين[4] .

---

(١) امراء الشعر ١٩٤ (الطبعة الثانية ١٦٠ — ١٦١) .

(٢) خ ١٠٢ — يتخيل الشاعر هنا ان للرماح عيوناً ابصرت المقتل (من بابك الخرمي) ولكن قضاء الله الذي لم يكن قد حان بعد مد بين عيون الرماح وبين قلب بابك ستراً امرضها فاضلت المقتل (ونجا بابك) .

(٣) خ ١٢١ — يخبرنا ابوتمام ان الممدوح (محمد بن الهيثم) لين العريكة طيب النفس ، حتى لو ان اخلاقه تجس باليد لما شك انسان في انها ثوب من الحرير رقيق. راجع سر الفصاحة ٢٤٩.

(٤) خ ٣٢٦ — ما زالت مدينة البذ (معقل بابك) بكر محصنة بعيدة المنال حتى استطاع القائد الافشين التركي (المشرقي) ان يكون اول بان بها (متزوج بها = اول من أخذها عنوة) .

— وركْبٍ يُساقون الرِّكابَ زُجاجةً من السير لم تَقْصِدْ لها كف قاطب ؛
فقد أكلوا منها الغوارِبَ بالسُّرى ، وصارت لها أشباحهم كالغوارب[1].

ولكن يجب ألا نجْفِلَ كثيراً من الغموض والتعقيد في الشعر ، كما يقول نفر من النقاد ، فان الشعر لا يمكن أن يكون الكلامَ المُتَداوَل المألوفَ . من من أجل ذلك وجب أن نغتفر للشعراء كثيراً مما يظهر في شعرهم من ذلك . « ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لَوَجَبَ ألا يُرى لأبي تمام بيتٌ واحد ؛ فانّا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وَفَرَ من التعقيد حظّهما و أفسد به لفظهما . ولذلك كثر الاختلاف (أي اختلاف الناس) في معانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب ، وصارت تُتطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني وألغاز المُعَمّى »[2] . وهذا يكاد يكون عاماً في الشعر كله ، قال الجرجاني[3] : « وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو مُحْدَث إلا ومعناه غامض مستتر ؛ ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفْرَدْ فيها الكتب المصنفة ، و تشْغَلْ باستخراجها الأفكار الفارغة[4] » . على أن الذي يُؤْخَذُ على أبي تمام أن ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد[5] .

قوى الفكر غوّاص على المعاني .

قال المبرِّد[6] « لأبي تمام استخراجاتٌ لطيفة ومعان طريفة ، وهو صحيح

---

(١) خ ٤١ ؛ امراء الشعر ١٩٦ — ١٩٧ — يجعل ابو تمام السير خراً صرفاً « غير ممزوجة » يديرها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ؛ ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ؛ وكان السير الكثير ايضاً قد انحلهم هم انفسهم فأصبحت أجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل (راجع ايضاً شرح التبريزي ١ : ٢٠٩) .

(٢) الوساطة ٤٣٠ — ٤٣١ .

(٣) الوساطة ٤٣١ .

(٤) الافكار الفارغة : التي ليس لها مشاغل .

(٥) الوساطة ٤٣٣ .

(٦) اخبار ابي تمام ٩٦ — ٩٧ ؛ أخبار البحتري ١٦٤ — ١٦٥ .

الخاطر حسن الانتزاع (للمعاني وللصور الشعرية). وأبو تمام يقول النادر والبارد، وما أشبهه إلا بغائص يخرج الدرّ والمَخْشَلِبَة[1]». والصولي يقول[2]: «ان أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه ويتعب في طلبه حتى يُبْدِعَ، ويستعير ويُغْرِبُ في كل بيت إن استطاع .... وأبو تمام لا يسقط معناه البتّة، وإنما يختلّ في (بعض) الوقت لفظُه. فاذا استوى له اللفظ فـ (ذلك) هو الجيّد من شعره النادر الذي لا يُتَعَلّق به».

تفاوت شعره

بدأ الآمدي حجاجه عن البحتري وحملتَه على أبي تمام بقوله[3]: «ووجدتُ ـ أطالَ الله عُمْرَك ـ أكثرَ من شاهدتُه ورأيته من رُواة الأشعار المتأخرين يزعمون أن شعر أبي تمام لا يتعلّق بجيده جيّدُ أمثاله، ورديئُه مطروح مرذول». وعلى هذا سار الأصفهاني فقال[4]: «والسليم من شعره النادر شيء لا يَتَعلّق به أحد، وله أشياء متوسّطة، و (أشياء) رَذِلَة جدّاً». كل هذه الأحكام ترجع بلا ريب إلى قول البحتري عن أبي تمام وعن نفسه[5]: «جيّده خير من جيّدي، ورديئي خير من رديئه».

ولقد أنصف الجرجاني لما استعرض أقوال النقّاد في أبي تمام ثم وازن بين هذه الأقوال وبين شعر أبي تمام، وقد استشهد ببعض غُرَره وقلائده، فقال[6]: رأيت أبا تمام .... يترقّى في هذه[7] الدُرَج العالية ويتصرّف هذا التصرف المعجز، ثم ينحط إلى الحضيض ويلصق بالتراب». ويلوم الجرجاني

---

(١) خرز أبيض يشبه اللؤلؤ.
(٢) أخبار البحتري ١٦٥ – ١٦٦، راجع ٥٧ – ٥٨؛ غ ١٥: ٩٦.
(٣) الموازنة ١.
(٤) غ ١٥: ٩٦.
(٥) أخبار البحتري ٥٧.
(٦) الوساطة ٦٥، راجع ١٨، ٢١، ٦٢ – ٧٨.
(٧) في الأصل «هذا». – الدرجة (بالضم، أو بفتح ففتح، أو بضم وفتح): المرقاة.

أبا تمام – مع شدة حبه له[1] – على أنه يأتي بالأبيات الرائعة الأنيقة ، ثم يأتي له في أثنائها بيتٌ ضعيف فيَقلَق هذا البيت الضعيف في موضعه وتتخلخل القطعة كلها . ان البيت الضعيف إذا جاء في أثناء أبيات بارعة أو متينة اشتد ضعفه بروزاً ، كما أن البيت البارع المتين إذا وقع في الأبيات السخيفة الركيكة ضاع جماله ولحقته هُجْنة . ويتمنّى الجرجاني أن لو كان أبو تمام قد حذف الأبيات الغثة الركيكة من ديوانه ولو ذهب في ذلك نصف شعره . ويردّ الجرجاني أكثر عيوب أبي تمام إلى شدة تكلفه للمعاني البعيدة وإلى الجِدّ في تطلب البديع ، فان التكلف ، في رأي الجرجاني[2] ، « قد يكون سبباً إلى طمس المحاسن » .

التشبيه والاستعارة

ويتبع أغراب أبي تمام في المعاني عموماً ، بُعدُ تشابيهه واستعاراته . ولكن لا يعزبنّ عن بالك أن الناس يميلون إلى ما ألِفوا ويصدون عما لم يَعرِفوا . وقد صرّح بذلك الآمدي[3] فقال عن أبي تمام : « ولو ... اقتصر من القول على ما كان مَحْذُوّاً حَذْوَ الشعراء المحسنين ... لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثرَ الشعراء المتأخرين » . وعلى هذا انتقد له « رقيق حواشي الحلم » لأنه ما علم أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ، وإنما يوصف الحلم بالعِظَم والرَجحان والثقل والرزانة ... »[4] وانتقد له :

من الهيف لو أن الخلاخلَ صُيرت لها وُشُحا جالت عليها الخلاخل .

فقال « وهذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب ... »[5] ، لأن

---

(١) قال الجرجاني: « ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام ، ولا تهجيناً لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره . فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع » (الوساطة ١٨) .

(٢) الوساطة ١٨ .

(٣) الموازنة ٥٦ .

(٤) الموازنة ٥٧ ، ثم ٥٧ – ٥٩ ، راجع الوساطة ٧٦ .

(٥) الموازنة ٥٩ ، الوساطة ٧٦ .

العرب تجعل الخلاخل ضيقة في الأرجل ، وتحب النساء البدينات . وانتقد له « عرض الدهر » ، « والزمان لا عرض له على الحقيقة »[1] .

وأخذوا على أبي تمام من استعاراته قولَه[2] :

فضربتَ الشتاء في أخدعَيْهِ ضربةً غادرته قَوْداً رَكوبا ،

وقوله : « يا دهر قوّم من اخدعيك[3] ... » فالآمدي لا يعترف للشتاء باخدعين « عُرقا العنق » ، وإنما هما للبشر أو للاحياء على الأقل . ثم ان الأستاذ ضومط يساير الآمدي الى حـــدّ فيقول : « إنه (أي أبا تمام) يصور الشتاء بعيراً صعباً وقد ركبه الممدوح فعاصى عليه في سيره فضربه ضربة شديدة في كل من اخدعيه فذل وأطاع ؛ ... ان الاستعارة بالكناية في البيت بعيدة عن المألوف ، ويصعب على الذهن تصورها » .

فأنت إذا رأيت الأسس التي ، اتخذها النقاد لنقد شعر أبي تمام ، علمت أنها صحيحة بالإضافة إلى أنفسهم — أي إلى ما ألفوا وما لم يألفوا — لا بالإضافة إلى ما يمكن أن يفهم منها بعد إعمال الفكر . ولا ريب عندنا في رجاحة رأي ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه منهما شيء فبقدر . ولا يجب أن يجعلا نصب العين ويكونا مُتّكئاً واستراحة ؛ وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس وهز الطباع ... » ، ثم نقل ابن رشيق رأي الجاحظ في مكان آخر فقال : « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ... فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكر الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله وقرب فهمه وعذُب النطق به[4] ... »

على ان تكلف أبي تمام قد جعل كثيراً من استعاراته سيئة لنفرتها في الذوق

---

(١) الموازنة ٨٢ .

(٢) ديوان خ ٢٧ ، الوساطة ٦٨ ، راجع ٤٤٦ ؛ سر الفصاحة ١١٧ ؛ راجع أمراء الشعر ١٦٢ .

(٣) الموازنة ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، الوساطة ٤٤٦ ، مجلة الكلية آذار ١٩١٤ .

(٤) للعمدة ١ : ٨٣ ، ثم ١٧١ — ١٧٢ .

واستحالتها في العقل كقوله مثلاً[1] :

باشرتُ أسبابَ الغِنى بمدائحٍ ضربتْ بأبواب الملوك طُبولا.

ومرد هذه السيئة عند أبي تمام ، في رأي الجرجاني ، ان الشعراء كانوا يَجرون في الاستعارة « على نهج منها قريب من الاقتصاد ، حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرُخصة فأخرجه إلى التعدي » .

ولكن يجب ألا نقرّ النقاد على كل شيء أخذوه على أبي تمام ، أو على غيره ، فقد لا يكون المعنى من السوء بحيث يظنون ولا الاستعارة من البعد بحيث يحسَبون . روى الجرجاني[2] بيت أبي تمام (ديوان خ ٧٥) :

شاب رأسي ؛ وما رأيتُ مَشيبَ الـ رأس إلا ممن فضل شيب الفؤاد .

ثم قال : « وهذا مما استقبح من استعاراته » ، يقصد استعارة الشيب للفؤاد (للقلب) . ولعل الجرجاني قد أُتيَ في ذلك من استغراب نفر من جلساء أحمد بن أبي دؤاد لهذا البيت . هذا البيت من قصيدة قالها أبو تمام في مدح أحمد بن أبي دؤاد ، هي[3] :

سَعِدَت غُربةُ النَوى بسُعاد فهي طوعُ الإتهام والإنجاد .

قيل لما وصل أبو تمام إلى البيت : « شاب رأسي .... » قال بعضهم : وكيف يشيب الفُؤاد ، فرد عليهم أبو تمام قيل ، ببيت ارتجله :

وكذاك القلوبُ في كل بؤس ونعيمٍ طلائعُ الأجساد .

قد تكون الاستعارة بعيدة : « أي تشبيهُ القلب بانسان يشيب رأسه » ، ولكن المعنى صحيح . يقصد أبو تمام — مما رأينا من البيت الذي ارتجله رداً على من اعترضه في ذلك — أن الشيب في الرأس علامة على ضعف المِنّة الجسدية . ان الشيب الطبيعي يأتي من التقدم في السن ، والتقدم في السّنّ يجعل الجسم

---

(١) الوساطة ٣٩ .

(٢) الوساطة ٢٥٠ .

(٣) ديوان خ ٧٥ — ٧٨ .

ضعيفاً . فالشيب الذي يأتي أيضاً مع تقدم السن هو علامة ظاهرة على الضعف المستتر في الجسم . وصَرَفَ التبريزيّ البيتين بيُسرٍ ، إذ قال في معنى البيت الأول : « أي ما شبت للكِبَر ، إنما للهُموم » . وقال في شرح البيت الثاني « أي كلّ ما يحدث بالجسم فاعلم انه بدأ بالقلب أولاً »[1] .

نحن نعلم أن شعر أبي تمام ليس من هذا النوع الذي يَقْرُبُ فهمه ويَعْذُبُ النطقُ به . ولكنه من ذلك النوع الذي تَطْرَبُ له العقول المثقفة والأفكار النيرة وأهل الاطلاع الواسع ؛ وكل ذنب أبي تمام عند قوم آخرين انه بحث عن أوجه للشبه جديدة واستعارات بعيدة عن المألوف أوحى بها إليه اطلاعه الواسع وفكره القوي وروحه الوثاب ، فاستبعدها الناس واستغربوها وحملوا عليه من أجلها.

وينصف الجرجاني حينما يقول : ان إساءة الشاعر في بيت أو في قصيدة لا تسقطه من الشعراء ولا تقدح في شاعريته[2] . إلا أن نفراً من النقاد المحدثين كانوا يفضلون الجاهلي والإسلامي (الأموي) ثم يُقِرّون للطبقة الأولى من المحدثين أمثال بشار وأبي نواس بشيء من الفضل ثم لا يَرَوْنَ فضلاً لمتأخر قَرُب زمانه من زمانهم[3] . وكان هؤلاء يتحاملون على الشاعر المحدث ولو كان محسناً . وربما سمع أحدهم الشعر غير منسوب فاستحسنه وطرب له ، ثم إذا نسب ذلك الشعر إلى قائله ، وكان قائله مُحدَثاً، ذمه وتبرأ من رأيه الأول[4] . وعلى هذا كان بعض النقاد ينفضون يدهم من أبي تمام مرة واحدة[5] .

كثرة اختراعه

قال ابن رشيق[6] : « وأكثر المولدين معانيَ وتوليداً ، فيما ذكر العلماء ،

---

(١) ديوان ، شرح التبريزي ١ : ٣٦٠ .
(٢) راجع الوساطة ٤٣٠ – ٤٣١ .
(٣) راجع الوساطة ٤٨ ، ٤٣٣ .
(٤) راجع الوساطة ٤٨، ٥٠، راجع ٧٨، ٤٣٣ .
(٥) الوساطة ٤٨ .
(٦) العمدة ص ١ : ١٨٩ .

أبو تمام » ؛ ولكنه شخصياً يميل إلى إعطاء هذا المركز لابن الرومي[1] ، مع أنه كان قد شركهما فيه قبل بضع عشْرةَ صفحة[2] حيث قال : « وأكثر المولّدين اختراعاً وتوليداً ، فيما يقول الحذاق ، أبو تمام وابن الرومي .. »

والاختراع عند ابن رشيق خلق المعاني التي لم يُسبق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط . وأما ابن الأثير فأشد تحفظاً في أحكامه ؛ جاء في كتابه[3] « قد قيل ان إبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين اختراعاً للمعاني ، وقد عددتُ معانيَه المبتدعة[4] فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة يُكبرون ذلك ؛ وما هذا من أبي تمام بكبير ![5] » .

وإلى هذا أيضاً ذهب أبو الفرج الأصفهاني[6] فقال عنه « شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غوّاص على ما يستصعب منها ويعسر متناوَله على غيره » . إلا أن النقاد لا يتفقون على أنه مطبوع .

اعتداده بشعره

نظر أبو تمام إلى نفسه فرأى قوة فكره ورأيه فقال [7] :

فاسمع مقالة زائر ، لم تشتبهْ آراؤه عند اشتباه البيد .
ـ ليت شعري ماذا يَريبك مني ، ولقد فُقت فِطنة الفيلسوف .

وأنت كيفما قلبتَ في ديوانه وجدتَّ فكراً لايكلّ على المدى بل يزداد دائماً قوة ونُضْجاً ، وكأنك من معانيه أمام سيل لا ينقطع . ويكفيه فخراً أنه جرح صحة تلك الفكرة القائلة : « ما ترك الأوائل شيئاً للأواخر » ثم

---

(١) ص ١ : ١٩٠ .
(٢) ص ١٧٧ .
(٣) المثل الثائر ١ : ١٩٣ .
(٤) لا شك في انه يقصد المخترعة . انظر العمدة ١ : ١٧٠ .
(٥) راجع النماذج في الكلام على الفنون والاغراض : الحكمة والزهد .
(٦) الاغاني ١٥ : ٩٦ .
(٧) ديوان خ ص ٨٤ ، ٤٠٤ .

دلّ على أن قول عنترة « هل غادر الشعراء من متردم؟ لا يعني أن الأقدمين أتَوْا على جميع المعاني ؛ وعلى ان بيت زهير[1] :

ما ترانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مَكرورا

اما منحول أو انه حكم شخصي خاص. أما أبو تمام فيقول عن قصائده (ديوان خ ١٤٣) :

يقول من تَقْرَعُ أسماعَه : كم ترك الأوّلُ للآخِرِ !

وظفر ابن رشيق[2] بهذا البيت فقال : « وعلى هذا القياس يُحمل بيت أبي تمام ــ وكان إماماً في هذه الصناعة غير مُدافَع ــ : « يقول من تقرع أسماعه.. » فنقض قولهم : ما ترك الأول للآخِر شيئاً.

وقال أبو تمام في مكان آخر فزاد بياناً وكشفاً !

فلو كان يَفْنى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ حياضُك، منه، في العصور الذواهب
ولكنه صَوْبُ العقول ؛ إذا انجلت سحائبُ منه أُعقبت بسحائب[3].

ويؤكد لنا أبو تمام ذلك بقوله عن قصائده (ديوان خ ٨١) :

مُنزّهة عن السَّرَق المُوَرّى ؛ مُكَرّمة عن المعنى المُعاد[4].

---

(١) هذا البيت من قصيدة منسوبة لكعب بن زهير (ديوانه ، صنعه ابي العباس احمدبن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب . Bibl, D.M.G. fol. 125a, Cod. Soc. 83 وليس في ديوان زهير (المجموع نفسه) . وليس هذا البيت في ديوان زهير (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م . وفي « شرح ديوان كعب بن زهير » من صنعة السكري (القاهرة ، دار الكتب ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م ، ص ١٥٤) : ما أرانا نقول إلا رجيعاً الخ .

(٢) العمدة ١ : ٥٧ .

(٣) ديوان خ ٤٣ ، ديوان ، الاسود ١٢٤ . لو كان الشعر مقداراً محدوداً ينتهي لانتهى منذ زمن طويل لكثرة ما أعطيت الشعراء على مدحك . ولكنه صوب العقول (انسكاب من العقول كانسكاب المطر من الغمام) كلما تلاشت غمامة (بتحولها مطراً يسقط على الأرض) تبعتها غمامة اخرى (راجع ايضاً المختارات) .

(٤) الاغاني ١٥ : ٩٧ .

ومعاني أبي تمام على كثرتها جيدة ؛ وحسبك أن يقول عُمارة بن عقيل وقد سمع له أبياتاً من قصيدته : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد : « لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه إليه ، حتى لقد حبّب إلي الاغتراب ! » ؛ يقصد بذلك قول شاعرنا (ديوان خ ١٠٠ — ١٠١) :

وطول مُقام المرء في الحي مُخْلق لديباجتَيْهِ ؛ فاغتربْ تتجدّدِ .
فاني رأيتُ الشمس زِيدَتْ محبةً ، إلى الناس ، أنْ ليست عليهم بسَرْمدِ .

مطالعه وتخلصه وخواتيمه

في النقاد نفر يرون أن تكون مطالع القصائد بارعة جداً لأن المطالع أول ما يقرع الأذن من القصيدة ، ويسمون ذلك براعة الاستهلال وحسن الابتداء . ويرى هؤلاء أن المطلع إذا كان حلو الألفاظ واضح المعنى متين التركيب ترك في نفس السامع أو القارىء أثراً باقياً قد لا يمحي ولو جاء في القصيدة عدد من الأبيات الرديئة . ومطالع أبي تمام بارعة في الأكثر ، وخصوصاً في الحوادث الكبار ، فمن مطالعه الجيدة :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حده الحَد بين الجِدّ واللعب .
— من سجايا الطلول ألا تُجيبا فصوابٌ من مقلتي أن تَصوبا .
— الحق أبلج ، والسيوف عَوارِ ؛ فحَذارِ من أسَد العرين حذار !
— كذا فليجِلّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ ، فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ .

ولكن له أيضاً مطالعَ لم تستحسن لما فيها من التعقيد أو لنفرتها في الذوق أو لغموض معناها . من هذه مثلاً (ديوان خ ٣٢١) :

خَشُنْتِ عليه ، أُختَ بني خُشينِ ؛ وأنجحَ فيكِ قولُ العاذلَيْنِ[1] .

---

(١) الاصل في خشن كسر الشين ، ولكن الرواية في الديوان بضمها . وبنو خشين قبيلة من اليمن (راجع شرح التبريزي ٣ : ٢٩٧) . — يقول : قسوت عليه ، ايتها الفتاة ، وقد صدقت فيه قول العذال (اللائمين ، الاعداء) .

ومن خصائص الشاعر المجيد « حسن التخلص » ، أي الانتقال في القصيدة من غرض إلى غرض (من الوقوف على الأطلال إلى الغزل فالى المدح فالحكم مثلاً) انتقالاً طبيعياً معقولاً سريعاً ، لا ان يتعثر الشاعر في انتقاله هذا فاذا به يقف في غرض وكأنه انتهى من مَقْصِدِه ثم يبدأ فجأةً بالغرض التالي . وإذا كان التخلص من غرض الى غرض في بيت واحد كان ذلك احسن . ومما يُحمد لأبي تمام من التخلص قوله في بيتين يمدح بهما عبد الله بن طاهر ، وقد استغرب رفاقُه بُعْدَ سفره :

يقول في قوَمسٍ صحبي ، وقد أخذت منا السُرى وُخطى المَهْرية القُودِ [1] :
أمَطْلَعَ الشمسِ تبغي أم تَوُمّ بنا ؟ فقلت : كلا ، ولكن مَطلِعُ الجودِ ! [2]

ويرى الجرجاني [3] أن أبا تمام قد ذهب في التخلص كل مذهب واهتم به كل اهتمام . غير أن حسن التخلّص في ديوان أبي تمام قليل جداً ، ذلك لأن أبا تمام شاعر مصنوع مقتدر ، لا شاعر مطبوع يجري على السجية . تأمّل قوله مثلاً يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري (خ ١٠٨) :

تريدين المزيدَ ، وليس عندي وراءَ محلِّ حبك من مزيد .
أما ، وأبي الرجاء ، لقد ركبنا مطايا الدهر من بيض وسود .
قلائصُ شوقهن يزيد شوقاً ويَمْنَعْنَ الرُقاد من الرقود .
إذا انبعثت على أملٍ بعيدٍ ، فقد أدْنَتْ من الأمل البعيد .
أبَيْنَ فما يَزُرْنَ سوى كريم ؛ وحسبك أن يَزُرْنَ أبا سعيد !

فأبو تمام ينتهي من الغزل والنسيب فجأة ثم يبدأ وصف الراحلة . غير أنه يختصر الانتقال من وصف الراحلة الى المدح .

---

(١) خ ١٣٦ . – اخذت منا (نهكتنا ، اتعبتنا). السرى (السفر ليلا) وخطى (خطوات ، سير ، سفر) المهرية (النياق من المهرة في جنوبي شبه جزيرة العرب) القود (جمع أقود وقوداء : الأبل الذلولة المعودة على السفر) .
(٢) أمطلع الشمس تبغي ؟ : لماذا هذا الامعان والايغال في السفر ...
(٣) الوساطة ٤٧ .

وأبو تمام يُحْسن اختتامَ القصائد كما يحسن مطالعها . وخواتيم قصائد أبي تمام واضحةُ المعنى بيّنة القصيد موجَزة القول ترسخ في الذهن بأدنى تأمّل . من ذلك قوله[1] :

كتبتُ ، ولو قَدِرْتُ – هوىً وشوقاً إليك – لكنتُ سطراً في الجوابِ !

وختم أبو تمام قصيدةً مدح بها أبا دُلَفٍ العِجْليّ ببيتين هما[2] :

أقولُ لأصحابي : هو القاسم الذي به شرح الجودُ التباسَ المذاهب .
وإني لأرْجو عاجلاً ان تردَّني مواهبُه بحراً تُرجّى مواهبي .

مصادر معانيه

اذا تركنا المصدر الشخصي لهذه المعاني ، وما تعلمه ابوتمام ورواه فاستقى منه ، ككثيرين من الشعراء ، رأيناه يأخذ المعانيَ أيضاً من أفواه الذين لا يقصدون ان يخرجوا ادباً لأنفسهم .

جاء في الاغاني[3] : « مر ابوتمام بمخنّث يقول لآخر : جئتك امسِ فاحتجبت عني ؛ فقال له : السماء اذا احتجبت بالغيم رُجّي خيرها » ... قال من روى عنه الاصفهانيّ « فتبينت في وجه ابي تمام انه قد أخذ المعنى ليضمّنه في شعره ، فما لبثنا اياماً حتى أُنشِدت قوله :

ليس الحِجابُ بمقصٍ عنك لي أملا ؛ ان السماء ترُجّى حين تحتجبُ .

وبجانب هذا النوع نوع آخر اختلف الناس في تسميته ؛ فقال بعضهم إنه سرقة ، وقال آخرون انه ابتداع .

يعتقد الآمدي[4] أن ابا تمام شُغف بالشعر ومطالعته « وانه ما من شيء كبير

---

(١) ديوان ٥٧ ؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٢٣٢ .
(٢) ديوان ٤٣ ؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٢٣٢ ؛ راجع المختارات
(٣) الاغاني ١٥ : ١٠٣ .
(٤) الموازنة ص ٢٣.

من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدَث الا قرأه واطّلع عليه ». لذلك تمكن من سرقة معانٍ كثيرة خَفِيَ اكثرها لقلة اطلاع الناس على ما اطلع عليه ابوتمام ». ويلي هذا القول اثنتان وثلاثون صفحة يردّ الآمدي فيها ابياتاً لابي تمام الى المصادر التي سرقت منها ، ويأخذه بها اخذاً شديداً ؛ مع ان الآمدي نفسه يقول حينما يعرض لسرقات البحتري[1] : « انه غير مُنكر ان يكون (البحتري) اخذ منه (من ابي تمام) لكثرة ما كان يرِد على سمع البحتري من شعر ابي تمام فيعتلق معناه قاصداً الأخذ او غير قاصد ... » و (ان هناك) ما يشترك فيه الناس ، وتجري طباع الشعراء عليه ؛ ... ثم اضاف الى ذلك قوله[2] : « ان من ادركتُه من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرَون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء وخاصةً المتأخرين ، اذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر[3] ... »

ليس من المستغرب ان يكون ابوتمام قد أخذ عدداً من معانيه من غيره ، ولكن المستغرب أن يتتبع النقاد المتحاملون عليه ألفاظَه ثم يزعُمون أن كل بيت شاكلت لفظةٌ من ألفاظه لفظةً في بيت شاعر آخر بيت مسروق[4] .

اكن هذا كله لا يعني أن أبا تمام لم يُلِمّ بمعاني الشعراء . لقد ألمّ أبو تمام بمعنى النابغة الذبياني في تحليق الطيور فوق الجيش الذاهب إلى الحرب : « إذا ما غزَوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير .... »[5] فقال[6] :

وقد ظلّلَتْ عِقبانُ أعلامِه ضُحىً بعِقبانِ طيرٍ في الدماء نواهِلِ[7] .
أقامت مَعَ الرايات حتى كأنّها من الجيش إلاّ أنها لم تُقاتِلِ .

---

(١) الموازنة ص ٢٢ .
(٢) الموازنة ص ١٢٤ .
(٣) راجع في السرقات الشعرية الوساطة للجرجاني ١٧٨-٢٠٩ .
(٤) راجع الوساطة ٢٠٢ وما بعدها ، وخصوصاً ٢٠٥ وما بعدها، ٢١٦، ٢٧٠-٢٧١، ٢٩٧ .
(٥) ديوان النابغة (بيروت ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م) ص ١٠ ؛ ديوان مسلم بن الوليد ٣٠٨-٣٠٩ .
(٦) ديوان خ ٢٤٨ ؛ راجع تفصيل ذلك في أخبار أبي تمام ١٦٣ - ١٦٦ .
(٧) العقاب (بالضم) : طائر من الجوارح . والعقاب : الراية ، وجمعها عقبان (بالكسر).

وكان أبو تمام شديد الإعجاب بصريع الغواني مسلم بن الوليد وبأبي نواس ، وقد أقسم مرة ألا يصلي حتى يحفظ شعرهما[1] . ثم ان أبا تمام كان يتبع مذهب مسلم بن الوليد في البديع [2] فليس بعجيب أن يكون قد ألمّ بمعان كثيرة له[3] . وكذلك ألم أبو تمام بمعان لأوس بن حجر الجاهلي[4] ولمسلم بن الوليد العباسي[5] ولأستاذه ديك الجن[6] ولغيرهم أيضاً .

لا يتسع المقام هنا لذكر عناصر السرقة في الشعر كما فصلها ابن رشيق عن المصادر التي استقى منها[7] ، فالقول متشعب والحكم نسبي ذاتي . غير أن ما لا يغتفر أن يأخذ الشاعر قول شاعر آخر بظله المخصوص ، ثم يسوقه في ألفاظ متفقة أو مختلفة . أما إذا راقه معنى ورأى أن بعض نواحيه قد خفيت على صاحبه فجلا تلك المعاني فهو كأنه قد اخترع ذلك المعنى أو أبدعه . وأحسن مثال على ذلك ما رواه الأصفهاني [8] فقال :

« حدثني هارون بن عبدالله المهلبي قال : كنا في حلقه دعبل ، فجرى ذكر أبي تمام ؛ فقال : دعبل كان (أبو تمام) يتتبع معانيّ فيأخذها . فقال له رجل في مجلسه : وأي شيء من ذلك ، أعزك الله ؟ قال : قولي :

وَإنّ امرءاً أسدى إليّ بشافع إليه ، ويرجو الشكر مني لأحمقُ .
شفيعَك فاشكرْ في الحوائج ، إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلَق .

---

(١) ديوان مسلم ٢٤٧ .
(٢) ديوان مسلم ٢٢٩ ، ٢٨٢ – ٢٨٣ الخ .
(٣) ديوان مسلم ٢١–٢٢، ٢٦، ٤٥، ٦٠، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٨–٢٩٩ ؛ راجع أخبار أبي تمام ٧٨
(٤) أخبار أبي تمام ٥٣ – ٥٤ .
(٥) ديوان مسلم ٢٨٧ عن كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ؛ أخبار أبي تمام ١٧٣ .
(٦) العمدة ١ : ٦٤ .
(٧) العمدة ٢ : ٢١٥–٢٢٦ .
(٨) الاغاني ١٥ : ٩٧ – ٩٧ . اخبار ابي تمام ٦٣ – ٦٥ .

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال[1] :

فلقيتُ بين يديك حلوَ عطائـــه ، ولقيتَ بين يديّ مر سؤاله .
واذا امروٌ أسدى إليك صنيعةً من جاهه ، فكأنهـــا من مالـــه!

... فقال : والله لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ؛ وإن كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ... »

وقد اتفق أيضاً أنِ اختار أبو تمام في حماسته بيتين في الأدب لأحد الشعراء[2] نراهما في إحدى مقطوعاته ، ومطلعها (ديوان خ ٤٨٥) :

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيئـــاً فأنت ومن تجاريـــه سواء ،

قيل قالها معرضاً فيها ببعض بني حُميد لأنه لم يستطع أن يَهْجُوَهُ لِما لآل حميد من الحب في قلبه والوفاء من نفسه ؛ ولا ريب في أن هذا نوع من السرقة صحيح ؛ ولو ظفر الآمدي بهذين البيتين لألف في مثالب أبي تمام كتاباً جديداً . ولقد فطن التبريزي شارح ديوان الحماسة إلى شيء من ذلك فقال ان أبا تمام اشتق معانيَ لنفسه من الشعراء الذين اختار لهم في « الحماسة » ، فقد أخذ معنى من الحارث بن همام الشيباني[3]

وحمل دعبل على أبي تمام متّهماً إياه بسرقة أجمل مراثيه « كذا فليجلّ » ، من مرثية لأبي مُكنِف المُزَني ، من ولد زهير بن أبي سلمى ، في ذفافة بن عبدالعزيز العبسي[4] ، هي[5] :

أبعدَ أبي العباس يُستعتبُ الدهرُ ؛ وما بعده للدهر عُتبي ولا عذر ؟
ألا أيها الناعي ذُفافةَ ذا النـــدى ، تَعِسْتَ وشُلت من أناملك العشر !

---

(١) ديوان خ ٢٤٠ ؛ شرح التبريزي ٣ : ٦٠ .
(٢) ٢ : ٢٠ .
(٣) شرح ديوان الحماسة ....
(٤) الوساطة ١٨٧ – ١٨٨ .

ولا مَطرَت أرضاً سماءٌ ، ولا جرت نجوم ، ولا لَذّت لشاربها الخمر .
كأن بني القعقاع ، بعد وفاته ، نجوم سماء خرّ من بينهـــا البدر .
تُوُفّـيَتِ الآمالُ بعد ذُفافـــةٍ فأصبح في شُغل عن السفَر السفْر .
يُعزَّونَ عن ثاوٍ تُعزّى به العلى ؛ ويبكي عليه البأس والمجد والشعر .
وما كان إلاّ مالَ من قـــلَّ مالُه ، وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخر .

ثم نظم مرثيته في أبناء حُميدٍ الطوسي فقال :

كذا فلْيَجِلَّ الخطب ، وليفدح الأمر ،
فليس لعين لم يفِضْ ماؤهـــا عـــذرُ .

بعد ذلك أثبت البيت الرابع بعد وضع كلمة : نبهان مكان القعقاع ؛ وغير ذفافة في البيت الخامس فجعلها محمداً ؛ ثم أثبت البيتين : السادس والسابع من غير تغيير .

على أن دِعبِل بن علي الخُزاعي هو الذي لفّق هذه الرواية ، ونَحَل أبا مكنف هذا الأبياتَ التي زعم أبا تمام سرقها . ولا ريب في أن أدني معرفة بالشعر والبلاغة تحيل الالتحام بين الأبيات الثلاثة الأولى وبين الأربعة الأخيرة . فالثلاثة الأبيات الأولى أشبه شيء بشعر عنتر المنحول في القصص ، بينما الأربعة التالية تنطق بشاعرية فياضة وعبقرية لا شك فيهـــا .

ولم يغب شيء من هذا على النقاد المعاصرين لأبي تمام ولا على رواة الأدب ، فقد قال علي بن الجهم الشاعر أن دعبلاً كان يكذب على أبي تمام ويضع عليه الأخبار . وقد ذكر الصولي[1] ذلك فقال : « وقد رأيت ، أعزّك الله ، بعض هؤلاء الجهلة يصحّف على أبي تمام ثم يعيب ما لم يقله قط » . ويبدو أن لذُفافة المزني هذا مرثية من بحر مرثية أبي تمام في محمد بن حميد وعلى رَوِيّها ، ولكن لا صلة لمرثية أبي تمام بها . ثم ان الأبيات التي زعم دعبل أن أبا تمام أخذها من

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٦١ .

مرثية ابي مكنف ثم حوّر فيها حتى توافق غرضه – وهذا مدار التهمة – غير موجودة في شعر ابي مكنف أصلا[1] .

والواقع أن نفراً من الناثرين والشعراء كانوا يأخذون من معاني أبي تمام إعجاباً بها . حتى أن إبراهيم الصولي[2] الذي ما اتكل يوماً على غير ما يجيش في صدره لم يملك إلا أن يَقْبِسَ من أبي تمام مَعانِيَ وردت في أبياته التالية[3] :

إذا مارقٌ بالغدر حاول غدرة ، فذاك حَرِيٌّ أن تثيم حلائله[4] .
فان باشر الأصحار فالبيضُ والقنا قِراه ، وأحواض المنايا مناهله[5] .
وان يَبْنِ حيطاناً عليه فانما أولئك عُقّالاته لامعاقله[6] .
وإلاّ فأعلمْه بأنك ساخط ودعه ، فان الخوف لا شك قاتله .

فقال مقتبساً[7] : «وصار ما كان يُحرزهم يُبرزهم ، وما كان يَعْقِلهم

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٠ – ٢٠١ ؛ هبة الايام ١٤٨ – ١٤٩ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٤١٩–٤٢٣

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٦ المطبعة الوطنية ١ : ١٥–١٦ ؛ والصولى هذا هو ابراهيم بن العباس ابن محمد بن صول ، توفي ٢٤٣هـ نصف شعبان (ابن خلكان ١ : ٢٨)

(٣) اخبار ابي تمام ١٠٢–١٠٣ . الاغاني ١٥ : ٩٧ ، ٩٨ ، الديوان ٢٣١–٢٣٢ .

(٤) اذا مارق (خارج من الدين ، مرتد ، لأنه ثار على الخليفة) بالغدر حاول غدرة (نكث بالعهد وخلع البيعة للخليفة من عنقه بالثورة) ، فذاك حرى ان (خليق به أن ، يجب ان) تثيم حلائله (ان تفقده نساؤه ، أن يقتل فتصبح حلائله أيامى) .

(٥) باشر : ولي الامر بنفسه . الاصحار : الخروج من المكان المسقوف الى المكان المكشوف او من المدينة الى الفضاء المعيط بها . البيض والقنا : السيوف والرماح . قراه : ضيافته ، طعامه . المناهل جمع منهل : مكان الماء الذي يستقي منه الناس ويشربون . – اذا جسر ان يخرج بنفسه (ليلقى المسلمين في معركة مكشوفة ، فانه سيلاقي حتفه) سيموت : سيأكل من السيوف والرماح وسيشرب أحواض الموت .

(٦) وان يبن حيطاناً عليهم (اسواراً للامتناع وراءها من هجوم الجيوش الاسلامية ، فانما أولئك (تلك الحيطان) عقالاته (جدران ، سجن حوله) . والعقالات (بضم العين وتشديد القاف) جمع عقال : داء في رجل الدابة اذا مشت ظلعت ساعة ثم انبسطت) (القاموس ٤ : ١٨ ؛ الديوان بشرح التبريزي ٣ : ٢٨) . والأليق ان يكون المعنى : ان تلك الحيطان تمسكه وتمنع حركته ، المعاقل جمع معقل : الحصن .

يعتقلهم .... فأنزلوه من مَعقِل إلى عِقال » . أما الشعراء الذين أخذوا من معاني أبي تمام فكثيرون منهم البحتري والمتنبي وسواهما[1] .

وقد أُعجِب أيضاً بهذه المعاني الشعراء حتى الأعداء منهم كدعبل[2] . وأعجبُ من هذا كله وأغرب أن أبا تمام ظل قوي الفكر طول حياته ؛ فانه « اختُرم (مات) وما استمتع بخاطره ، ولا نُزح ركيّ (بئر) فكره حتى انقطع رشأ عمره[3] (حبل عمره) » .

العروبة والاسلام في شعر أبي تمام

ولد أبو تمام رومياً نصرانياً ، ثم دخل في الإسلام قبل أن يبلغ من العمر سناً تستحكم فيها العقيدة في النفوس فهماً أو تقليداً . والصابئون من عقيدة إلى عقيدة ، والنازعون عن مبدأ إلى مبدأ ، والمنقلبون من سياسة إلى سياسة ، تعظم عصبيتهم للحال الجديدة التي صاروا إليها وتزيد نُفرتهم من الحال التي كانوا عليها . ثم هم يحرِصون على أن يقنعوا جماعتهم الجديدة بأنهم قد اختاروا المذهب الجديد إيماناً واقتناعاً ورويّة . من أجل ذلك نرى لهم تلك الحمية الجاهلية ، وإن كانت حمية صادقة في كثير من الأحيان . انهم يريدون أن يُشهدوا قومهم الجدد على أنهم قد قطعوا ما بينهم وبين ماضيهم مرة واحدة . وأبو تمام مثل بارع على هذه القاعدة .

ولقد سبق لنفر من الشعراء ، منذ صدر الدعوة الإسلامية ، أن نثروا في شعرهم أقوالاً تدل على تعلقهم بالإسلام وشادوا بالعروبة أو العروبية من حيث اتصالها بالإسلام نفسه[4] . ولكنني لا أعرف شاعراً قبل أبي تمام جعل ذلك وُكده في ديوانه ثم أخرجه تلك المخارج المتعددة المنازع والصور . وأنا لن أشغَل نفسي

---

(١) راجع الوساطة ٢٠١ وما بعدها .

(٢) الاغاني ١٥ : ١٠٣ س .

(٣) الاغاني ١٥ : ٩٨ .

(٤) Das Bild des Fruehislam ... 128-134.

هنا باستقصاء أبياته التي أشار فيها إلى آيات القرآن الكريم وإلى الأحاديث الشريفة إشارة أو اقتباساً أو تضميناً[1] ، فان هذه كثيرة في ديوانه كثرةً تعيا على الحصر . وكذلك لن أتتبع في شعره تفاصيل العبادات ولا فنون علمه بالأديان ، فما ذلك كله من قصدي هنا . ولكنني سأبسط رأي أبي تمام من الناحية السياسية القوميـــة .

من الصعب أن نفرق في ديوان أبي تمام ، وفي دواوين غيره من الشعراء إلى عهد قريب ، بين العرب والمسلمين ، أو بين مدرك العروبة ومدرك الإسلام . مدح أبو تمام حفصَ بن عمر الأزدي فقال (ديوان خ ١٣١) :

فأنتَ ــ وقد مجّت خُراسانُ داءها ... وقد نَغِلَتْ أطرافها نَغَلَ الجلدِ [2] ؛
وأوباشُها خُزْرٌ إلى العرب الأولى ... لكيما يكونُ الحر من خَوَلِ العبدِ [3] ؛
وراموا دم الإسلام لا مِنْ جهالةٍ ... ولا خطأً ، بل حاولوه على عَمْدِ ــ
ضممتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلّها ، ... ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بُدّ .
ولما أماتت أنجمُ العرب الدُجى ... سَرَتْ وهي أتباع لكوكبك السعد [4] !

وليس من المستغرب أن نرى أبا تمام يجعل العجم في الإسلام مثل العرب ، فان العصور الوسطى لم تعرف جامعاً سوى الدين . وهكذا قال أبو تمام يمدح

---

(١) الاستشهاد بآية من القرآن الكريم استشهاداً تاماً او استشهاداً جزئياً .
(٢) أنت مبتدأ خبره ضممت في البيت الرابع الذي يلي (راجع شرح التبريزي ٢ : ١٢١). في ديوان خ ١٣١ : فأبت (رجعت) . مجت خراسان داءها : لفظته ، ظهر داؤها (عمت الفتنة فيها) . نغلت أطرافها : فسدت (بالعصبية اي بالقتال بين قيس واليمن) . نغل الجلد : فسد وانتن (بسوء الدبغ أو بإهمال الدباغ) .
(٣) الاوباش (جمع وبش بفتح ففتح) : الاخلاط من الناس والسفلة . خزر جمع أخزر : من ينظر من طرف العين (من المكر أو العداوة) . الخول (بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث) : العبيد والخدم .
(٤) أماتت أنجم العرب الدجى : تغلب العرب على خصومهم في الفتنة .

إسحق بن إبراهيم المصعبي ويذكر شجاعته وهمته (ديوان ع ٣٠٣) :

أطعت ربّك فيهم ، والخليفـــة قد أرضيته ، وشفيت العُرب والعجما .

وكل صلة عند أبي تمام تتقطع سوى صلة المسلمين برسول الله[١] :

نرمي بأشباحنا إلى مَلِكٍ نأخذ من مالِه ومن أدبِهْ :
نجمُ بني صالحٍ ، وهم أنجم الـــ ـعالم من عُجْمه ومن عَرَبِـــه ؛
رهط النبي الذي تُقَطّع أســـ ـباب البرايـــا سوى سببـــه .
مهذّبٌ قُدّتِ النبوّة والإســـ ـلام قَدّ الشِراك من نسبه [٢].

من أجل ذلك كله كانت القدوةُ العظمى برسول الله وحدَه [٣] وكان فضلَ المسلم ، خليفة أو أميراً أو قائداً أو فرداً من عامة الناس ، أن يكون في نصرة الإسلام[٣] ، والمحاميَ عن الإسلام[٤] ، وفارس الإسلام[٥] ، وأن يوطد أعلام الهدى ويُقر عمود الدين[٦] . فاذا استغاث الإسلام وجب على المسلمين أن ينجدوه[٧] بما عرف عنهم من الشجاعة[٨] ، لأن الإسلام لا يعز إلا بمقارعة أعدائه إذا همّ به أعداؤه[٩] . والأسلام سيشكر ما يوليه إياه أهله من نجدة وظفر[١٠] . ولا يفرق أبو تمام في ذلك الشكر لأهل تلك النجدة بين الإسلام والدولة والعرب ، قال أبو تمام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ويصف شيئاً من بطولته في هزم بابك الخُرَّمي ثم يحار في الإعراب عن الشكر له :

تالله أدري ، أألإسلام يشكرها ، من وقعة ، أم بنوالعباس أم أدَدُ؟[١١]

---

(١) في الحديث المرفوع : « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي » (شرح التبريزي ١ : ٢٧٦) .

(٢) قدت النبوة والاسلام قد الشراك من نسبه : النبوة والاسلام ونسبه من معدن (أصل) واحد . الشراك زيق من الجلد يؤخذ من قطعة كبيرة من الجلد فهما لذلك مثيلان في النوع .

(٣–١٠) ديوان خ ٢٠ ، ١٠٩ و ٣٠٢ ، ١٣٨ ، ٢٦١ ، ٢١٨ ، ٢٦١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ على التوالي .

(١١) ديوان خ ٩٩. – والله (لا) أدري ، من احق بشكرك على هذه المعركة : الاسلام ام بنو العباس (اي الدولة) ام ادد (قبيلتك) لأن ظفرك فيها كان فائدة للدين وللدولة ولقومك .

يوم به أخذ الإسلام زينتـــه بأسرها ، واكتسى فخراً به الأبدُ[1] .
يومٌ يجيء ، إذا قام الحسابُ ، ولم يَذْمُمْهُ بَدْرٌ ولم يُفْضَحْ به أُحُدُ[2] .
لم تبق مشركة إلاّ وقد علمـــت ، إن لم تَتُبْ ، أنه للسيف ما تَلِدُ[3] .

وكان الإسلام لا يزال مهدداً من المشرق ومن المغرب : كان المشركون من الأعاجم يهددون الإسلام والمسلمين من الشرق ، وكان الروم اليونانيون يهددون الإسلام والمسلمين من الغرب[4] . ولم يستطع الإسلام أن يعيش ، في ذلك الحين ، في سلام مع أهل الشرك فاضطر اضطراراً إلى حربهم . قال أبو تمام في مديح أبي سعيد الثغري لمناسبة قتاله لبابك أيضاً[5] :

لما أبوا حُجج القرآن واضحـــة كانت سيوفك في هاماتهم حججا.

ولقد انتصر الإسلام على المشركين[6] وعلى الروم(خ١٥١) . ولم يستطع أبو تمـــام أن يرى الحرب بين العرب والأعاجم في المشرق إلا في لباسها الديني[7] :

يا رُبَّ فتنة أمّة قد بزّها جبّارها في طاعة الجبار .
موتورة طلب الإله بثأرها ؛ وكفى بربّ الثأر مدركَ ثار[8] .

وبما أن نفراً من الذين كانوا يحاربون العرب في المشرق كانوا مسلمين ، فان أبا تمام سماهم منافقين[9] . أما أبرز مواقف أبي تمام في ذلك فموقفه في قصيدته « فتح الفتوح » ، وهي موجودة في المختارات .

---

(١) يوم : معركة . الابد : ما بقى من الدهر (سيبقى الفخر بهذا الظفر في تلك المعركة الى الابد) .
(٢) اذا قام الحساب : يوم القيامة . بدر : غزوة انتصر فيهـا الرسول على مشركي العرب (٢هـ). احـد : جبل قرب المدينة جرت عنده معركة (٣هـ) انهزم فيهـا المسلمون .
— ان ظفرك في هذه المعركة قد زاد في وجاهة غزوة بدر ، ومحت هزيمة غزوة أحد .
(٣) ان لم تتب : ان لم تدخل في الاسلام . للسيف ما تلد : سيكون القتل في المعارك نصيب نسلها .
(٤) ديوان خ ٢٨ ، ١٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ .
(٥) ديوان خ ٦٩ .
(٦ — ٧) ديوان خ ٢٦—٢٧ ، ٦٩ ، ١٤٨ ، ٣٠٢ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ثم ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٩٧ ، وخصوصاً ٧ وما بعدها .
(٨) ديوان خ ١٥٢ وما بعدها .

٢ ــ خصائصه اللفظية

أول ما يطالعك في ديوان أبي تمام غرابةُ الألفاظ ، فأبو تمام مُغْرم أحياناً بالألفاظ الغريبة التي يقلّ ورودها عند غيره . ثم انه كان يحب تلك الالفاظ التي كانت تدور في الأدب القديم وفي البيئة البدوية ، إذ كان من الذين يحبون الاقتداء بالقدماء[١] . وكذلك نجد عدداً من الكلمات يتردّد في شعر أبي تمام : في البيت الواحد ، أو في أبيات من قصيدة واحدة ، أو في أبيات من قصائد مختلفة . لقد فعل أبو تمام ذلك كلّه ، بين الحين والحين ، « وأظهر التعجرف[٢] وتشبه بالبَدْوِ ونَسيِ أنه حضري متأدّب وقَرَوي متكلف »[٣] فجاء من الألفاظ الغريبة الحوشية بمثل قوله :

قد قلت ، لما اطلخمّ الأمرُ وانبعثت ... عَشْواءُ تاليةٌ غُبْساً دَهاريسا[٤] :

ــ فعَنيقها يَعْضيدها ، ووَشيجُها ... سَعدانُها ، وزميلها تنّومها[٥] .

---

(١) الوساطة ١٨ ، راجع ١٩–٢١ .

(٢) تعجرف الرجل : أظهر الجفوة في الكلام ، وتكبر .

(٣) الوساطة ٧٠ .

(٤) الديوان خ ١٧١ ، الوساطة ٧٠ . ــ اطلخم : أظلم . عشواء : (ناقة) ضعيفة البصر . تالية : تابعة ، تتبع . الغبس (جمع أغبس) : ذئاب في لونها كدرة (كلون الرماد) . الدهاريس جمع دهرس (بفتح الدال والراء) : الداهية ، الخبيث . ــ المعنى : خان الناقة بصرها فتبعت ذئابا ضواري (في المصائب يشتبه الأمر على الانسان فيلقي نفسه في التهلكة من غير أن يدري) .

(٥) الديوان خ ٣١٢ ، الوساطة ٧٠ . العنيق : المعانق . اليعضيد : بقلة (قصيرة ، قريبة من الارض) . الوشيج : شجر تجعل من أغصانه الرماح . السعدان : نبت من أفضل مراعي الابل . الزميل : الرديف (اذا ركب شخصان على ناقة فالمتأخر منهما هو الرديف) . التنوم : شجر له ثمر يدخل في العلاج ، وهو يخرج الدود من البطن . ــ المعنى : يصف أبو تمام ناقة تقطع الصحراء في أحوال صعبة حتى أنهكها التعب فأصبح عنيقها يعضيدها (رأسها من التعب أصبح يمس الارض كأنها تعانق النبات النابت على وجه الارض) ، ووشيجها سعدانها . (أفضل طعام كانت تحصل عليه كان تلك الاغصان القاسية التي تصلح لتكون رماحاً) ، وزميلها ــ

غير أن ذلك لم يكن عادة لأبي تمام ألزمها نفسه ، فان أبا تمام كان — كما يرى الجرجاني[1] — إذا أراد أن يجريَ على سجيته جاءت ألفاظ شعره فصيحةً مألوفة ، فاذا قصد التكلف كَثُرَتْ في شعره تلك الألفاظ الغريبة الحُوشيةُ النافرة . ومع هذا فان أبا هلالٍ العسكريَّ قد تحامل على أبي تمام وجانب الحقَّ لما قال[2] : « كان أبو تمام يتتبع وحشيَّ الكلام ويُدخله في شعره » . ولكن مما لا ريب فيه أن أبا تمام قد جانب طريق الشعراء المطبوعين الذين يتقبلون ما يُملي عليهم طبعهم فيأتي شعرهم فصيح الألفاظ عذب التركيب . فاذا دلهم الطبع على لفظة جزلة أو كلمة غريبة أنزلوها موضعها لتُحْدث في نفس القارىء أو السامع أثراً مقصوداً أو لتبرز معنى ملموحاً أو لتُعين الشاعر على الإيجاز . أضف إلى ذلك كله أن للشعراء — في رأي ابن رشيق — ألفاظاً تدور في شعرهم ، قال ابن رشيق[3] : « وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يَعْدُوَها ولا أن يستعمل غيرها » . ومع ذلك فقد جاء عند جميع الشعراء شيء من الألفاظ الغريبة الحوشية[4] .

ومن التكرار القبيح للكلمة الواحدة في شعر أبي تمام قوله[5] :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المُؤمِّل منك إلاّ بالرضا .

أو قوله[6] :

= تنومها (وقد فسد بطنها فأصابها إسهال= كانت تأكل الوشيج الجامي ، القامي ، فيؤلم بطنها ؛ ثم تأكل التنوم فتمشو بطنها) .

(١) الوساطة ٧١ .

(٢) كتاب الصناعتين (مستشهد به في أمراء الشعر ١٦٣) .

(٣) العمدة ٢ : ٨٣ .

(٤) سر الفصاحة ٩١ .

(٥) ديوان خ ١٨٧ ، الوساطة ٧٠ .

(٦) سر الفصاحة ١٨٦ . — الكلمات الثلاث في الشطر الاول : « اسلم ، سلمت ، سلمت » مكرورة . السلام (بكسر السين : جمع سلمة بفتح السين وكسر اللام) . الحجارة . سلمى : جبل في بلاد طيء . السلم : شجر نضار (بضم النون) ، لا يسقط ورقه .

فاسلَمْ ، سَلِمْتَ من الآفات ، ما سَلِمَتْ
سِلامُ سلمى ومهما أورق السلَم .

ان ترديد هذه الألفاظ في بيت واحد مكروه جداً، وإن كان عدد منها يؤدي معانيَ مختلفة .

وكذلك لأبي تمام ألفاظ يحبّ أن يبني عليها جانباً من استعاراته ككلمة « أخْدَع » (عِرق في جانب العُنُق) في مثل قوله[1] :

وضرَبتَ الشتاء في أخدَعيْـــهِ ضربةً غادرته قَوْداً رَكوبا .
ـ يا دهر، قَوِّم من أخدعيك فقد أضْجَجْتَ هذا الأنام من خَرَقاكْ .

وسوى ذلك . على أن ترداد لفظ بضع مرات في ديوان كبير ليس عيباً كبيراً ، وإن كنا نأخذ على أبي تمام أنه أجرى هذا اللفظ الواحد بضع مرات في استعارة واحدة .

أما التركيب عند أبي تمام فهو متين لا شك في ذلك . ولكنّ تكلف أبي تمام للمعاني البعيدة وغرامَه بالصناعة وتطلبَه للكلام الغريب أدخلت على شعره شيئاً من التعقيد أدّى إلى شيء من الغموض . ولعل تكلّفه للمعاني البعيدة هو الذي اضطره إلى القَبول بالتركيب المعقد إذا لم يستطع الإتيان بتركيب أكثر وضوحاً للتعبير عن المعنى الذي تراءى له تعبيراً يحيط بجميع جوانب ذلك المعنى . من ذلك كله قوله[2] :

خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانَ أخـــاً عنه فلم يتخوّن جسمَه الكَمَدُ[3].
ـ يا يوم شرّد يومَ لهوي لهـــوُهُ بصَبابتي وأذلّ عزّ تجلّدي[4] .

---

(١) ديوان خ ٢١٠٤٢٧. راجع ايضاً : « ولين اخادع الدهر الابي » (خ ٤٣٤٤ سر الفصاحة ١١٧) .

(٢) راجع الوساطة ١٨ ، راجع سر الفصاحة ١٥١ .

(٣) ديوان خ ٣٦٦ . ـ اذا نزلت مصيبة برجل فلم ينحل جسم صديقه بالحزن له، فلتنزل تلك المصيبة بذلك الصديق .

(٤) ديوان خ ١١١ . ـ أيها اليوم الذي استخف بحبي وتلهى (بالتهكم علي) فأفسد علي تمتعي باللهو مع من أحب ثم فضح تصبري وأظهرني بمظهر الضعيف المسلوب الصبر (راجع ايضاً شرح التبريزي ٢ : ٤٥ مع الحاشية ٣) .

الصناعة في شعر أبي تمام

جرى لسان العربي ، منذ عهد بداوته ، بألفاظ متشابهة لفظاً متقاربة في لمعنى أو متقاربة في المعنى دون اللفظ ينتظر السامع أن تأتي معاً ؛ وبألفاظ متضادّة في المعنى . وقد كانت هذه الألفاظ تجري على لسان العربي بين الفينة والفينة لا يَقْصِدُ إلى تأليفها أو رصفها . ثم جاء القرآن الكريم فكان فيه منها شيء غير يسير ، ولكنه غير مقصود .

ثم أخذ الناس يفطنون لعذوبة هذه الألفاظ وطلاوتها إذا انتظمت في التركيب على نسق مخصوص . ثم قصد إليها الأدباء والشعراء منذ أواخر العصر الأموي واتسع القول فيها في صدر العصر العباسي . قال الخفاجي[1] : « وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلاً غير مُتكلَّف ولا مقصودٍ في نفسه . وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلَهِجوا به[2] منهم مُسْلِمُ بن الوليد الأنصاري وأكْثَرَ منه ومِنَ استعمال المُطابق والمُخالف .... حتى قيل عنه إنه أول من أفسد الشعر (به) . وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم في استعماله والإكثار منه » .

وفي الأغاني[3] عن أبي تمام « وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميعَ الشعراء . وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فانّ له فضلَ الإكثار فيه ، والسلوكِ في جميع طرقه » . وأنكر الآمدي على أبي تمام هذا الفضل البتةَ لأنّ الناس سبقوه إليه ؛ ثم عد « استكثارَه منه وإفراطَه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه »[4] . أما ابن رشيق فيظهر لنا بجلاء انه أميل إلى الأصفهاني في تأكيد فضل أبي تمام ، فقد قال عن أبي تمام : « انه كان يُجيد باب التصنيع »[5] .

وأما الجرجاني فذكر أن أبا تمام كان يجمع أحياناً المعنى البديع إلى الصنعة

---

(١) سر الفصاحة ١٨٣-١٨٤ .
(٢) لهج به : أغرى به ، أغرم به ، ثابر عليه .
(٣) ١٥ : ٩٦ .
(٤) الموازنة ٨ .
(٥) العمدة ٢ : ٣٢ .

اللطيفة[1] . وجعله مرةً ثانيةً هو وأبا نواس « سيّدي المطبوعين وإمامَيْ أهل الصنعة »[2] .

الجناس والطباق

كان أبو تمام يتكلف التجنيسَ والمُطابقة (الجِناس والطِباق) ويسوق فيهما المعانيَ البعيدة فتُغْلق على أفهام العامة وغير العامة أو تكاد ، ثم تنفر أحياناً في الذوق . وكان العرب قد استحسنوا الجناس في الجملة بعد الجملة ، وفي البيت بعد البيت ، كما استحسنوا أيضاً أن يكون التجنيس بين كلمتين فقط . إلا أن أبا تمام الذي تكلف كل شيء في شعره : تكلف ان يأتي بالتجنيس في كل بيت من أبيات قصائده وأن يجانس بين الكلمتين والثلاث والأربع ، وربما ملأ البيت بالكلمات التي يجانس بينها تجنيساً تاماً أو ناقصاً . وحَرَصَ أبو تمام على أن يأتي في شعره بجميع فنون التجنيس ، ومثل ذلك كله فعل في الطباق أيضاً . وبما انه يندر أن يأتي الجناس مستقلاً عن الطباق فانني اخترت أن أعالجهما هنا معاً .

لأبي تمام براعة في الجناس والطباق وقف أمامها أنصاره وخصومه مبهوتين . بعد أن حمل الآمدي على أبي تمام ، في شأن الجناس ، ما شاء أن يحمل عليه ، قال مُقِرّاً له بالتقدم والبراعة[3] :

لو « اقتصر الطائي على ما اتفق له في هذا الفن من حلو الألفاظ وصحيح المعنى كقوله :

---

(١) الوساطة ٣١ .

(٢) الوساطة ٧٩ . قال الجرجاني : « وانما خصصت ابا نواس وابا تمام لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وإمامي أهل الصنعة » . ومن الاصوب عندي أن يقال : « بين سيد المطبوعين وبين امام أهل الصنعة » (راجع الوساطة ٤٨) .

(٣) الموازنة ١١٧ ، واتممت البيتين الاولين من الديوان (خ ٣١٢ ، ٣٥٦) . وقد ذكر الآمدي صدرها فقط .

نثرتْ فريدَ مدامـــع لم تُنظم ؛ والدمع يحمل بعض شَجْوِ المَغرم[1].

ـ جفوفَ الردى ! أسرعت في الغصُن الرطب ؛

وخطبَ الرَدى والموت ! أبرحت من خطب[2] ؛

ـ قد يُنعم الله بالبلوى، وإن عظمت ؛ ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[3] ؛

لسقط أكثر ما عيب عليه » . ثم ان هذه الأبيات وأمثالها هي التي سماها كتاب أمراء الشعر[4] « التأنق البديعي » . وإليك الآن بضعة أبيات فيها رونق وماء ، وهي في ابن الزيات[5] :

تُطلّ الطلول الدمعَ في كل موقف ، وتَمثُل بالصبر الديار المواثل .

دوارسُ لم يجفُ الربيع ربوعها ، ولا مرّ في أغفالها وهو غافل .

فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ، وقد أخملت بالنَّور منها الخمائل.

مها الوحش ، إلاّ ان هاتا اوانس ؛ قنا الخط ، إلا أن تلك ذوابل .

هوى كان خلساً ؛ ان من احسن الهوى

هوىً جُلت في أفيائه وهو خامل !

واستحسن الجرجاني (الوساطة٤٢) « التجنيس المستوفى » في قول أبي تمام :

---

(١) ديوان ٣١٢ . ـ الفريد : اللؤلؤ . الشجو : الحزن . ـ سال من عينيها دمع يشبه اللؤلؤ ، ولكن لا يجمع في سلك أو خيط حتى يصبح عقداً (يقصد : بكت) . والدمع يحمل (يدل على أو يخفف) شيئاً من حزن المحب .

(٢) ديوان ٣٥٦ . ـ يا أيها اليبس ، لقد أدركت الغصن قبل الاوان ؛ ويا مصيبة الهلاك والموت ، ما أعظمك من مصيبة (يقصد : أيها الموت ، أتيت على هذه المرأة باكراً في شبابها فكانت المصيبة بها عظيمة) .

(٣) ديوان ٣١٦ ، الموازنة ١١٧ .

(٤) ص ١٨١ وما بعدها .

(٥) ديوان ٢٥٥ ـ ٢٥٦ . ـ وقد مدح الجرجاني (الوساطة ٤١ ، ٤٤) البيتين الاول والرابع ، وقال عن البيت الرابع : « ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجد منه (من الطباق) قول أبي تمام : مها الوحش .... فطابق بهاتا وتلك ، وأحدها للحاضر والآخر للغائب ، فكانا نقيضين في المعنى وبمنزلة الضدين » .

ما مات من كرم الزمان فانـــه يحيا لدي يحيى بن عبدالله[1] !

« فجانس بيحيا ويحيى » ؛ وحروف كل واحد منهما مستوفى في الآخر . وإنما عُدَّ في هذا الباب لاختلاف المعنيين ، لأن أحدهما فعل والآخر اسم » .

واستحسن الجرجاني لأبي تمام « الجناس الناقص » في قوله (الوساطة٤٣) :

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ ؛

إذ أن « عواص » تنقص عن « عواصم » ، و« قواضٍ » تنقص عن «قواضب» .

على أن لأبي تمام شيئاً غيرَ قليل من الجِناس السيء تكلّف الجمعَ فيه بين الكلمات وخالف وجه البلاغة ، ثم ساق تلك الأبياتَ التي ورد فيها الجِناسُ سياقةً غامضة معقّدة . فمن تجنيسه السيء (ديوان خ ٣٠٢) :

قرّت بقرّانَ عينُ الدين وانشترتْ بالأشترين عيونُ الشرك فاصْطُلما[2] .

ـ ذهبت بمذهبه السماحة فالْتَوَتْ فيه الظنون : أمذهب أم مذهب[3] .

---

(١) ديوان ٣٤١ ؛ الوساطة ٤٢ . ـ ان يحيى بن عبد الله يحيي (يعيد ذكرى) الكرم الذي كان في الزمن القديم ثم مات (نسي) .

(٢) قران بتشديد النون (لم يضبط الخياط القاف ، ص ٣٠٢ ؛ وضبطها التبريزي بالضم ، ٣ : ١٦٩ ؛ قران (بضم القاف وتشديد الراء) قرية باليمامة (القاموس ٤ : ٢٥٩ ؛ راجع ياقوت ، طبعة مصر ٤ : ٤٦) ، وليست المقصودة هنا . وقِران (في ياقوت أيضاً) : قصبة البدين (بتشديد الدال) في أذربيجان حيث استوطن بابك .

انشترت العين : انقلب جفنها الادنى . اصطلمت الاذن : قطعت من أصلها . وقمة صيلمة (بفتح الصاد وسكون الياء وفتح اللام) : مستأصلة ، مبيدة . ـ قرت عين الدين (بردت ، اطمأنت ، رضيت ؛ انتصر الدين (الاسلام) . انشترت عيون الشرك : انقلبت ؛ هزم الشرك . الاشتران : مالك بن الحارث النخعي وابنه ابراهيم من أصحاب علي بن أبي طالب (وليسا المقصودين) . واشتر قرية من بلاد الجبل عند همذان (تاج ٣ : ٢٩٠) في ناحية بين نهاوند وهمذان (ياقوت ، مصر ١ : ٢٥٤ ، راجع ٢٥٥) .

(٣) خ ٣٩ ؛ شرح التبريزي ١ : ١٣٦ـ١٣٧ . ـ السماحة : الكرم . مذهب (بفتح الميم) : طريقة ، سبيل ؛ منصرف ، مخالفة . مذهب (بضم الميم) : ثوب محلى بالذهب (رياء ، تظاهر) . ـ ذهبت بمذهبه السماحة (غلبت عليه ، اتبعت طريقته لأنه عظيم الكرم جداً فأصبح الكرم تبعاً له) . فالتوت فيه الظنون (اختلفت في عمله الآراء وحارت) : أهذا مذهب له حقاً (طريقة وخلقاً وسجية) أم مذهب (بضم الميم) : رياء وتظاهر بالكرم ؟

وكنا رأينا أن أهل الصناعة لا يقرّون التجنيس بين أكثر من لفظتين ، ولكنّ أبا تمام تعدّى ذلك مرات كثاراً ، فقد قال مثلاً :

فاسلم، سلمت من الآفات ، ما سلمت
سلام سلمى ومهما أورق السلم[1] .

شعره وأسلوبه

ليس أبو تمام من الشعراء المطبوعين الذين يجري الشعر على لسانهم عَفْواً وسليقةً ، بلا تكلفٍ ولا مُحاولةِ صَنْعةٍ ، وإن كان صاحب الأغاني قد قال (١٥ : ٩٦) عن أبي تمام « إنه شاعر مطبوع لطيف الفِطْنة » . وقد جار الأنباري على أبي تمام لما قال فيه[2] : « وكان يحب الشعر ، فلم يزل يُعانيه حتى قال الشعر وأجاده » . أما الآمدي فأبدى رأياً منصفاً لما قال[3] : « وان كنت تميل إلى الصنعة والمعاني التي تُستخرج بالغَوْص والفِكْرة ، ولا تَلْوي على غير ذلك ، فأبو تمام عندك أشعر (من البحتري) » .

وكذلك اتفق أكثر النقّاد — في نقل بعضهم عن بعض — على أن شعر أبي تمام مُتفاوِتٌ . ثم قال بعضهم إن شعر أبي تمام « لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة »[4] .

ومع كل هذه العيوب فقد عُدَّ أبو تمام أشعر أهل زمانه ؛ وعده الوزير الشاعر محمد بن عبدالملك الزيات أشعرَ الناس طُرّاً ؛ وكذلك فضّله صديقه الشاعر علي بن الجَهْم على سائر الشعراء[5] ؛ وفضّله البحتري على نفسه[6] .

---

(١) راجع ص ٧٩ (٢) نزهة الالباء ٢١٤ .
(٣) الموازنة ٣ .
(٤) الموازنة ٢ .
(٥) راجع اخبار ابي تمام ٦٢ .
(٦) راجع الاغاني ١٥ : ٩٦، ٩٧، ١٨ : ١٦٨، أخبار البحتري ٥٧، ٦٠، ١٤٧-١٤٨ .

وقد مر بنا شيء كثير من خصائصه التي تجتمع لتؤلّف أسلوبه .

مذهب أبي تمام في الشعر

يقول بروكلمن : « إن أبا تمام يمثل بشعره شعراء المقاطعات تمثيلا صحيحاً ، وهو المثال المحتذى في ذلك » . وعلى هذا جعل بروكلمن شعراء العصر العباسي قسمين : شعراء بغداد خاصة وشعراء المقاطعات كالشام وخراسان [١] . وتأثّر به جرجي زيدان [٢] واتبعه في ذلك أحمد حسن الزيات [٣] .

ومصدر هذا الحكم جملة وردت في الأغاني [٤] عند الكلام على ديك الجن الحمصي من أنه « يذهب مذهب أبي تمام والشاميين » ؛ فكأنه جعل للشاميين خاصة مذهباً مخالفاً لمذهب أهل بغداد في الشعر ، ثم جعل أبا تمام المُتَّبَعَ ، مع أن ديك الجن أقدم من أبي تمام وعنه أخذ أبو تمام بعض شعره [٥] .

أما مذهب الشاميين فالتصنيع في الشعر بتكلّف البديع ، ثم هو — فيما يبدو — تطلّب التشابيه والاستعارات البعيدة والمغالاة في التجنيس والطباق . وكان أولَ من تكلف البديع من المولّدين مسلمُ بن الوليد [٦] وأفسد به الشعر [٧] . ثم كثر التصنيع في شعر أبي تمام .

عمود الشعر والمذهب الشامي

لما قارن النقاد شعر أبي تمام وشعر البحتري بأشعار القدماء من الجاهليين

---

(١) Geschichte der arabischen Litteratur, Leipzig (C. F. Amelangs Verlag), 1901, SS, 79, 86 ff., (2. Ausg, 1909, ibidem); GAL I 71, 82, 83 ; Suppl. I 108, 133, 134.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٣٠) ٢ : ٥٦ وما بعدها .

(٣) تاريخ الادب العربي (مصر ١٣٤٧ — ١٩٢٨) ، ص ١٩٣ و ٢١٧ وما بعدها .

(٤) ١٥ : ١٣٦ .

(٥) راجع فوق ، ص ٢٥.

(٦) العمدة ١ : ١١٠ .

(٧) سر الفصاحة ١٨٤ .

والإسلاميين وجدوا بين شعر الطائيَّين وبين شعر المتقدمين فرقاً ظاهراً. قال الآمدي عن أبي تمام إن « شعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة »[1]. أما البحتري فقال عنه الآمدي نفسه وعلى الصفحة الثانية من موازنته أيضاً : « البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ، ما فارق عمود الشعر قط. وكان يتجنّب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام ». على أن الطائيين كليهما شغلا أنفسهما بتصيّد الصناعة في شعرهما ، من جناس وطباق وتوريات ، ومن استعارات وتشابيه فيها من الإغراب فوق ما عرفه القدماء. ولكن البحتري كان أقل تكلفاً في إيراد أوجه البلاغة في شعره من أبي تمام.

وشغل الدكتور شوقي ضيف نفسه بدراسة التصنيع في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي »[2] ، وتتبّع في نطاق البحث الذي أخذ به نفسه « معاناة الشعر » منذ الجاهلية فكان يُلحّ على جانب « الصنعة » في دواوين الشعراء الذين جانبوا السجية والسليقة في نظمهم كثيراً أو قليلاً.

ووقف نجيب محمد البهبيتي جانباً كبيراً من كتابه « أبو تمام الطائيّ »[3] على « صُنّاع الشعر » وعلى العوامل التي أثرت فيهم ثم تكلم على « أصحاب المعنى » و « أصحاب اللفظ » ، وخلص من ذلك إلى الكلام على عمود الشعر ، مما كان المرزوقي قد وضّحه في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام.

وفي عام ١٩٥١ أصدر الأستاذ عبدالعزيز سيّد الأهل كتابه « عبقرية أبي تمام »[4] ، وعُني فيه بتوضيح المذهب الشامي وبالوقوف عند الصور البلاغية في الأبيات المفردة.

---

(١) الموازنة ٢ .

(٢) الطبعة الاولى ١٩٤٣ ، الطبعة الثانية ١٩٤٥ ، الطبعة الثالثة ١٩٥٦ .

(٣) القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥ .

(٤) دار العلم للملايين بيروت ١٩٥١ .

الأصل في الشعر أنه مطبوع ومصنوع : مطبوع يجري فيه الشاعر على السجية أو مصنوع يتكلّف فيه الشاعر شيئاً كثيراً أو قليلاً من التهذيب والتنقيح ومن التفنّن في إيراد المعاني والألفاظ ومن القصد إلى استجماع التشابيه والاستعارات [1] .

والأصل في الشعر العربي خاصة أنه جاهليّ ، أي أن خصائصه المعنوية واللفظية خصائص عربية بدوية غير متصلة بحضارة أجنبية . ثم ان النقّاد قسموا الشعراء الجاهليين أنفسهم قسمين : شعراء البدو وشعراء القرى (المدن) . وقلما حفل النقاد بشعراء القرى ، وقلما قدّموا أحداً منهم .

وبما أن الخصائص اللفظية أبرز للعين من الخصائص المعنوية فقد اهتمّ النقاد كثيراً بألفاظ الشعراء وتراكيبهم وبما دخل فيها كلها من اللهجات ومن الكلمات المهجورة والأجنبية . وكذلك اهتمّ النقاد بشكل القصيدة . وبما أن المعلقات كانت أشهر الشعر القديم فقد جعل النقاد « المعلقة » ميدان الشعر كله وقدموا الشعراء الذين يقتربون بقصائدهم من شكل المعلقة ومن خصائصها المعنوية واللفظية معاً .

وجاء الإسلام وانتشر العرب بالفتوح في الأرض ودخل في الإسلام شعوب ما عرفت الجاهلية ولا كانت العربية لسانها ولا التاريخ الجاهلي جانباً من حضارتها ؛ وكان في الموالي (المسلمين من غير العرب) والمولدين (المولودين من زواج عربي وغير عربي) ، وفي الذين احتكّوا بهم أيضاً ، شعراء جعلوا يجرون في نظم الشعر على السجيّة من فطرتهم وبيئتهم ، فجاء شعرهم مخالفاً للقصيدة الجاهلية أو للمعلّقة على الأصح .

وخصائص المعلقة هي التي تلي :

إنها قصيدة طويلة تتألف من أغراض متعددة ، غرض واحد منها مقصود

---

(١) راجع العمدة ١ : ١٠٨ وما بعدها .

لذاته – وقد يكون فيها غرضان مقصودان – وعدد من « الأغراض الممهّدة » تأتي قبل الغرض المقصود وبعده . وتبدأ القصيدة القديمة عادة ، أو المعلقة على الأصح ، بالوقوف على الأطلال ، ثم يتخلّص الشاعر إلى وصف راحلته والطريق التي سلكها ، ثم يطرق غرضاً آخر من الغزل أو الفخر أو الخمر قبل أن ينتقل إلى الغرض الأساسي المقصود الذي نظمت القصيدة من أجله . ويكون الغرض المقصود في بعض القصائد مديحاً (كما عند النابغة مثلاً) ، أو غزلاً (كما نرى عند امرىءالقيس) ، أو فخراً وحماسة (كما عند عمرو بن كلثوم وعنترة) . والواقع أن كل غرض من أغراض الشعر يصلح أن يكون غرضاً مقصوداً لذاته ، إذا قصده الشاعر من نظم قصيدته ثم عُني به وبسط فيه القول .

ولقد حرَص الشاعر القديم على ان يجعل كل بيت من أبيات قصائده تامّ المعنى في نفسه ، كما كان من المستحسن أن ينطوي البيت الواحد على معنيين أو أكثر .

وكذلك حرص الشعراء القُدامى على أن تكون **معانيهم شريفة** ، أي من المعاني الجميلة التي يُفتخر بها في العادة (كالكلام على الكرم والنسب والخمر والوفاء) لا من تلك المعاني المبتذلة التي تدور في أحاديث العامة أو في الحياة اليومية . أما **الالفاظ** فكان المختار فيها أن تكون **جزلة** (فخمة دالّة على معان مقصودة بها وحدها) ، مع الفصاحة ومتانة التركيب . وكانوا يحبون في **الوصف** أن يكون مطابقاً للموصوف ، مع التمييز بين الموصوفات حتى لا يقصّر وصف عن موصوفه ولا ينطبق على غير ما قصد به . وأما إذا وقع التشبيه فيجب أن يكون واضحاً بيّن الصلة بين المشبّه والمشبه به دالاً بنفسه على وجه الشبه. وأما الاستعارة فيجب أن تكون بارعة قريبة يدركها العقل بأدنى تأمّل مع الطرافة في الإشارة إلى المقصود . وكذلك كان الشاعر القديم يتخيّر الوزن المناسب ويتوخّى النظم السهل في التركيب العذب الذي يجري ليّنا على اللسان سهلاً في الأذن لطيفاً في القلب ثم يترك السبيل للقافية الشرود أن تنزل في بيته حتى ليخيّلُ إلى القارىء أو السامع أن هذا البيت لم يكن ليتمّ إلا بتلك القافية وحدها .

ذلك كان « عمود الشعر » الذي أشار إليه النقاد ، وتلك كانت « طريقة » العرب (أي القدماء) . وبهذا « العمود » كان النقاد ، في صدر العصر العباسي وأواسطه ، يقيسون أشعار الشعراء ويقدمون بعض الشعراء على بعض .

وقد كان الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك يحكّكون شعرهم ، أي يرددون فيه النظر بالتنقيح والإصلاح وبالحذف . حتى رووا أن زهير بن أبي سلمى كان يقضي في عمل القصيدة حولاً (عاماً) كاملاً : ينظمها في أربعة أشهر ، ويردّد نظره فيها أربعةَ أشهر ، ثم يَعرِضها على أهل الرأي من أصحابه أربعة أشهر . ولذلك سمّيت قصائده « الحوليّات » ، وسمّي هو « محبّراً » لحسن شعره ، ولكنه عُدّ بذلك أيضاً من عبيد الشعر الذين يتكلّفون إصلاحه ويشغلون به حواسّهم وخواطرهم [1] .

ويبدو أن نفراً آخرين من شعراء الجاهلية لم يكونوا يذهبون هذا المذهب ، بل كانوا ينظمون مقاطع قصاراً أو طوالاً ثم يقصُرون تلك المقاطع على غرض واحد من الفخر أو الرثاء أو الهجاء أو الغزل أو الوصف أو الحكمة . وإذا كان

---

(١) قال المرزوقي في مقدمة شرح الحماسة (١ : ٨–١١) : « ... فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتبين تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث .. ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع من المطبوع » . والشعراء الذين ساروا على عمود الشعر « كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف . ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات ؛ (ثم) المقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكله اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها (اقتضاء اللفظ والمعنى) للقافية حتى لاتكون منافرة بينها. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل بيت منه معيار (مقياس) . فعيار المعنى العقل (أي بجعل المعنى) مستأنساً بقرائنه (من المعاني المتصلة به) وافياً (بها) . وعيار اللفظ الطبع ، فما سلم مما يهجنه فهو المختار المستقيم . وعيار الاصابة في الوصف حسن التمييز (أي انطباق الوصف على الموصوف حتى لا ينطبق الا عليه) . وعيار المقاربة في التشبيه حسن التقدير حتى يتبين وجه التشبيه بلا كلفة. وعيار التحام أجزاء النظم الطبع واللسان فلا يضطرب تركيبه ولا يتعثر فيه اللسان. فهذه الخصال هي عمود الشعر عند العرب ، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم .. » .

نفر من الأدباء قد حفلوا بهؤلاء الشعراء واختاروا من أشعارهم مجاميع ، كديوان الحماسة لأبي تمام . فان النقاد لم يحفلوا بهم كثيراً ، **فتاريخ الشعر العربي في الجاهلية هو على الحقيقة تاريخ المعلقات وتاريخ شعراء المعلقات** .

ولما جاء العصر الأموي وأخذ الشعراء الموالي والمولدون يزدادون جعل « السائرون على عمود الشعر » يتجاهلونهم ويسخرون منهم . ولما بدأ عمر بن أبي ربيعة يفرض شعره على تاريخ الأدب قيل فيه : « ما زال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر [1] . وهكذا فارق عمر بن أبي ربيعة عمود الشعر فقصر شعره كله على فن واحد . ثم قصر كل مقطوعة من شعره على حادثة واحدة ، فكان بذلك زعيم ما سمي فيما بعد بالمذهب البغدادي — قبل أن تبنى بغداد بسبعين سنة — .

وسقطت دولة بني أمية في المشرق سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) وقامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، وكان الشعراء المولدون قد زادوا في العدد على الشعراء العرب ، فأخذت الخصائص القديمة تختفي من القصائد شيئاً فشيئاً : أخذت القصائد تقصر والأغراض فيها تقل ، وجعل نفر من الشعراء يفارقون الجِدّ في الشعر إلى المَزحِ ، والرصانةَ إلى البَطالةِ ؛ ثم أخذ الأسلوب يضعف أو يَرِكّ لاهتمام الشعراء « المحدثين » باقتناص المعاني الجديدة وبالتعبير عما كان يختلج في صدورهم من الرغبات المتنافرة فقلّ لذلك اهتمامهم بالتركيب . واحتاج هؤلاء المحدثون أو المولدون في التعبير عن الأغراض الجديدة التي زخرت بها بيئتهم إلى ألفاظ جديدة أو إلى صيغ جديدة على الأقل ، فتناولوا تلك الألفاظ من غير اللغة العربية الفصحى واشتقوا من الصيغ ما تمكنوا به من التعبير عن ظلال المعاني الجديدة التي كانت تزخر بها صدورهم [2] . هذه الطريقة الأدبية التي قامت على تفضيل المعنى على اللفظ عرفت في تاريخ الأدب باسم « المذهب البغدادي » .

ولما استطال النفوذ الفارسي في المجتمع العربي والسياسة العربية وفي الأدب

---

(١) راجع عمر ابن أبي ربيعة للمؤلف (الطبعة الثانية) ، ص ٤٠ — ٤١ .
(٢) راجع الوساطة ٢٣ ، ٢٤ ؛ العمدة ١ : ١٥٠ .

العربي أيضاً ، خشيَ هرون الرشيد أن يزيل الفرس الدولة العربية فنكب وزراءه البرامكة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) وأتى إلى الوزارة بالفضل بن الربيع لينهج في الدولة سياسة عربية . ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الناس مالوا بعد نكبة البرامكة عن كل ما هو فارسي في السياسة وفي مظاهر المجتمع ، وفي الأدب أيضاً .

وهكذا عاد الشعراء العباسيون إلى عمود الشعر القديم ثم بالغوا في ذلك . وقد عرف هذا « المذهب المستأنف في العصر العباسي » باسم « المذهب الشامي » . فالشعراء الشاميون إذن هم المحافظون على عمود الشعر القديم ، وهم المحافظون ذوو العصبية العربية البدوية والسالكون في الشعر مسلك الشعراء الجاهليين من أصحاب المعلقات خاصة . على أن الشعراء الشاميين قد زادوا على الجاهليين في تكلف المعاني البعيدة وملأوا أشعارهم بالبديع ، بالجناس وبالطباق ، وأوغلوا في التشابيه والاستعارات . أما البغداديون فهم المجددون المتساهلون في أمر العصبية لأن معظمهم من الفرس . ثم إنهم ميالون إلى الحَضَر وما فيه من ترف كارهون للبادية . ثم إنهم مالوا في قصائدهم إلى المقاطع ووحدة المعنى فيها والتساهل في الألفاظ والتراكيب وتركوا التكلف وجَرَوْا على السجية . وقد كرهوا البديع إلا ما جاء في شعرهم عفواً .

والمذهب البغدادي والمذهب الشامي في الأصل تسميتان جغرافيتان ، إذ المفروض أن يكون الشعراء البغداديون من أهل بغداد والشعراء الشاميون من أهل الشام (سورية) . فبشارٌ وأبو نواس وابن الرومي هم من شعراء المذهب البغدادي المقدَّمين ومن أهل بغداد . وكذلك ديك الجن الحمصي وأبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس والمعري كانوا من أتباع المذهب الشامي ومن أهل الشام . غير أن مسلم بن الوليد والشريف الرضي كانا بغداديين على المذهب الشامي . ومثلهما كان المتنبي عراقي الأصل من الكوفة ولكنه شامي المذهب . ثم ان أبا تمام و البحتري كانا من أهل الشام ومن أتباع المذهب الشامي مع أنهما قضيا الجانب الأوفر من حياتهما الأدبية في العراق .

موجز خصائص المذهب الشامي

في ما يلي موجز للآراء المبسوطة في الصفحات السابقة منسوقة نسقاً ظاهراً:

١ ــ شكـــل القصيدة : إطالة القصيدة وتعدد الأغراض فيها، والقصيدة الشامية تبدأ عادة بالنسيب .

٢ ــ تثقيف الشعر : العناية بالأبيات بتنقيحها .

٣ ــ التأنق والتصنيع : العناية باللفظ والتركيب والإكثار من البديع ، مع الحرص على ألا تخلوَ قصيدة ولا بيت من أبيات قصيدة من هذا التصنيع ما أمكن[١] .

٤ ــ الايغال في التشبيه والاستعارات الى ما يشبه الرمز حتى ليكادُ يغمض المعنى وتخفى الصورة البلاغية .

٥ ــ جمع المعاني الكثيرة في الابيات القليلة ، والوقوف على المعنى الواحد بالتقليب له على وجوهه وبإقامة الادلة على صحته ، وبضرب الأمثلة .

٦ ــ لزوم الجد او التظاهر به على الاقل. فقلما يميل الشاعر الشامي الى اصطناع المرح واللهو وقلما يحسنهما في شعره .

٧ ــ إدخال فنون العلم في الشعر ، فالشاعر الشامي شاعر مثقف تظهر ثقافته في شعره وهو يطوي شعره على اشارات الى اغراض من اللغة والنحو والأدب والفقه والمنطق والفلسفة والفلك وما اليها .

٨ ــ يلتزم الشاعر الشامي في حياته وشعره مسلكاً معيناً يحاول ان يفرضه في صِلاته بالناس ويصبر على المشاقّ ويتشدد في المصائب . وكان معظم الشعراء الشَاميين يتشيعون لآ ل البيت .

٩ ــ الشاعر الشامي شاعر مقتدر ينظم الشعر في جميع الاغراض التي يريدها. اما الطبع عنده فقليل البروز .

---

(١) استشهد الجرجاني (الوساطة ٣١) بقطعة في الغزل لابي تمام « لم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة طابق (فيه) وجانس واستعار فأحسن » .

١٠ – يؤلف المديح الجزء الأوفر من ديوان الشاعر الشامي . ثم ان خصائص المديح تغلب عنده على سائر فنونه . وهو يجيد الفخر ، وربما اجاد الرثاء ووصف المعارك إجادة كبيرة . ثم إنه لا يجيد الهجاء ، وقلما برع في الغزل . وكذلك تكثر الحكمة عند الشاعر الشامي كثرة ظاهرة . اما المجون فلا يكاد يظهر عنده .

١١ – الاكثار من الاعلام الجغرافية ، إما بالوقوف على الاطلال تقليداً لشعراء الجاهلية ، أو تملحاً بذكرها ، أو اعتماداً عليها لتبيان التنقل وتقييد الحوادث .

١٢ – الاكثار من ذكر الاشارات التاريخية : رجال التاريخ والحوادث والمعارك والانساب وما اليها .

ولا ريب أبداً في أن الشعراء الشاميين يتفاوتون في هذه الخصائص اقتصاداً وإسرافاً . وقد يشترك الشاعر الشامي والشاعر البغدادي في بعض هذه الخصائص.

نظم ابي تمام

كان في ابي تمام ابطاء [١] (في نظم الشعر) ، وكان يُكره نفسَه على قول الشعر اكراهاً ؛ فلا غروان ظهر ذلك على شعره [٢] ؛ كان يفعل ذلك ليقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها ، او التجنيس الذي يطلبه . وربما نصب القافية التي تروقه وجهد في سَوق البيت اليها ، مع ان ذلك مخالف لمذهب الشعراء المطبوعين . ان البيت يجب ان يأتي بقافيته ؛ على ان الشعراء الذين يجمعون القوافي اولاً ثم يبنون عليها الابيات ليسوا قليلين .

وابو تمام من الذين يُعنَوْن بتهذيب شعرهم ؛ فمن شواهد ديوانه على ذلك :

– اليك أرَحْنا عازب الشعر ، بعدما تمهّل في روض المعاني العجائبِ [٣] .

---

(١) الاغاني ١٢ : ٦٧ .

(٢) العمدة ١ : ١٣٩ .

(٣) خ ٤٢ ؛ راجع المختارات .

– نشرٌ يسيرُ بـــه شعرٌ يُهذّبــه فِكْرٌ يجول مجالَ الروح في الجسدِ [1].
– أوْلى المديحِ بأنْ يكونَ مهذّباً ما كـــان منـــه في أغرَّ مـــهذبِ [2].

وهو يريد بذلك ان يُبلغ شعرَه الغاية :

– سأجهد حتى أُبْلِغَ الشعرَ شأوَه ، وان كان لي طوعاً ولستُ بجاهـــد [3].
– سَيَرتْ فيـــك مدائحاً فـــتركتُها غُرَراً تروح بها الرُواةُ وتغتدي [4].

نحن نعلم ان ابا تمام نصح للبحتري في اتباع خُطة في النظم تُخرج شعره مسبوكاً ، ولا ندري اذا كان قد اتبعها هو فكانت له مذهباً ؛ او انها موعظة محض . وعلى كل فان فيها أن ينهض الشاعر في السَحَر بعد ان يكون قد أخذ لنفسه قسطاً من الراحة ؛ ويكون خلياً من همّ أو غمّ . ثم ليجعل النسيب رقيق اللفظ رشيق المعنى . وليكن مدحه مُظهِراً مناقبَ الممدوح مشرّفاً مقامه ؛ وليجتنب في كل ذلك المعانيَ المجهولة والالفاظ الوزية [5] ؛ ثم ليقصد الى ما استحسنه الماضون وليترك ما اجتنبوه . بعد ئذ خصه بهذه النصيحة الثمينة : « واجعـــل شهوتك لقول الشعر الذريعةَ الى نظمه [6] » .

هذه الوصية تصدق على ما نرى في قصائد شاعرنا ولكنها تخالف الرواية التي يتمسك بها ادباء كثيرون [7] من انه رُوي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة احسن في جميعها الا في بيت واحد . فقال له : « يا ابا تمام ، لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب » ؛ فقال له : « انا والله أعلم منه مثل ما تعلم ؛ ولكنّ مثَلَ شعر الرجل عنده مثلُ اولاده : فيهم الجميل والقبيح ،

---

(١) خ ٤٩٢ .
(٢) خ ١٤ .
(٣) خ ١٩ لست بجاهد : مجهد نفسي (متعبها) في قول الشعر .
(٤) ١٢٧ .
(٥) راجع المديح ، في ما يلي .
(٦) ملخصة ، راجع العمدة ١ : ١٣٩ .
(٧) الاغاني ١٥ : ٩٦ .

والرشيد والساقط ؛ وكلهم حلو في نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص ، وان هَوِيَ بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر » .

التصريع و التوشيح

لم يكن بنا حاجة الى ذكر التصريع هنا لولا انه سيقودنا الى البحث في التوشيح. لقد جرى الشعراء على تصريع قصائدهم : التزامهم القافية في العَروض والضَرْب من المطالع كقولهم :

ـ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنز (ل)
بسقط اللوى بين الدخول فحوم (ل) .

ـ الا هُبّي بصَحنك واصْبَحي (ينا) ولا تُبقي خمورَ الانـدر (ينا) .

ـ دع عنك لومي ، فان اللوم إغر (اءُ) ، وداوني بالتي كانت هي الد (اءُ)

وعلى هذا سار ابو تمام في جميع قصائده المهمة الا قصيدة واحدة جعـل مطلعها :

سلام الله عـدة رمل (خبت) على ابن الهيثم الملك (اللباب) [1] .

ومع ان « المصرّع ادخل في الشعر واقوى من غيره » [2] فقد تساهلوا في المقطعات احياناً لاعتقادهم ان القصائد فقط يجب ان تُصَرَّع . وعلى هذا ايضاً سار ابو تمام . ولكنه كان يصرّع احياناً مطلع البيتين والثلاثة [3] .

التوشيح

استحدث المتأخرون من شعراء الاندلس فناً « سمّوه بالموشح ينظمونـه اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصانا ، يكثرون من اعاريضها المختلفة ... ويلتزمون

---

(١) ديوان ، الاسود ١ : ١٤٦ ، خ ٥٥ .
(٢) العمدة ١ : ٩٩ ، راجع ايضاً اختلاف العلماء على ما هي القافية الى ص ١٠١ ثم ص ١١٤ .
(٣) راجع الديوان خ ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ الخ .

قوافيَ عند تلك الاغصان [1] ... »

وقد ورد لأبي تمام أبيات فيها تقسيم أو تسهيم يشبه ماورد في الشعر الذي يعد طليعة للتوشيح، قسم فيها أبو تمام الأشطر أقساماً متساوية أو شبه متساوية والتزم القافية في آخر كل جزء من أقسام الاشطر. وفي ما يلي أبيات لأبي تمام تجري هذا المجرى [3] :

— يقول فيسمعُ . ويمضي فيسرعُ ، ويضرب في ذات الاله فيوجعُ .
— جبال طواليع ، جبال فوارعُ ، غيوث هواميع ، سيول دوافع .
— انا الحسام ، انا الموت الزؤام ، انا الحرب الضرام ، انا الضرغامة العتد .
ايام سيفك مشهور ، وبحرك مسجور ، وقرنك مقصور ، له الطول .
ألا سبيل ندى ، الا سبيل بلى ؟ لو كان حياً لأضحى للندى سبل .
يعطي فيجزلُ ، او يدعي فينزل ، أو يُؤتى لمحمل اعباء فيحتملُ .
— ومن فاحم جعد ، ومن قمر سعد ، ومن كفل نهد ، ومن نائل ثمد .

وألصق شيء بهذا الموضوع وزن جديد ليس من الابحر الستة عشرة في أبيات هي [4]

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٣) ٥٨٣ .

(٢) للمؤلف دراسة حديثة في الموشح وتطوره أثبت موجزاً لها في كتابه « المنهاج في الادب العربي وتاريخه » (الجزء أ ، ص ٢٦٣ — ٢٧٢) ، ولكن لا سبيل الى المجيء بشيء منها هنا ، ولا الاشارة الا بهذه الكلمة العارضة.

(٣) الابيات التالية ترد في الديوان خ ، ص ١٩١ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ مرتين ، ١٢٧ على التوالي .

(٤) الديوان ٤٤٣ . — وقد وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس (مخطوطة برلين ٢٠١ أ) مع شيء من الاختلاف في الرواية . وكذلك ورد لأبي نواس نفسه ما يشبهها (مخطوطة برلين ٢٠٣ ، راجع ديوان أبي نواس ، مصر ١٨٩٨ ص ٣٤٦) :

سلاف دن كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن .
طبيخ شمس كلون ورس ربيب فرس حليف سجن .

وللشاعر معروف الرصافي (ت ١٩٤٥ م) قطعة هي (ديوان ، مصر الطبعة الرابعة ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣م ص ٤٢٨)

سمعت شعراً للعندليب تلاه فوق الغصن للرطيب ،

نلاحظ أنها من البحر نفسه ولكنها ليست موشحة من حيث القوافي .

ثقيل ردف دقيق خصر ، شقيق شمس نتيج بدر .
بديع حسن رشيق قد ، مليح خد نقي ثغر .
قضيب بان عليه بدر ، مثال حسن عروس خدر .
يا خصرُ ، قد كنتُ ذا اصطبار في الحب حتى هتكتَ ستري .
نمّت دموعي على عزائي ، اذ غاب عني جميل صبري .

واحسبني لم اجد له غير بيت واحد فيه كلمة عامية [1] :

الا بكرت معذورة حين تعذل تعرّفني (ملعيش) ما لست اجهل .

وتستطيع ان ترى شيئاً من اللحن الذي اخذه عليه الآمدي في الموازنة [2] . ولعله ، اعجاباً منه بطائيته ، استعمل « ذو » الطائية بمعنى الذي مرتين :

اذا انتَ وجّهت الركابِ لقصده تبيّنْتَ طعمَ الماء «ذو» أنت شاربُه [3]

ـ أنا « ذو »عرَفت، فان عرتك جهالة فأنا المقيم مقامةَ العُذّالِ [4] .

---

(١) ديوان ٢٤٥ . ـ ملعيش أصلها « من العيش » نحت يلجأ اليه العامة تخفيفاً للفظ مثل «أيش» (أي شيء) و« لايش » (لأي شيء) . وقد يدخل الادباء عدداً من هذه الالفاظ في شعرهم ونثرهم تملحاً ، كما قال أبو نواس (ديوان ٣٠١) :

كيف أصبحت ؟ لا عدمت صباحاً صالحاً ، يا محمد بن قريش .
أنس نفسي ، كيف استجزت اطراحي ؟ فيم ذا ، سيدي ، وذاك لأيش ؟

ويرى بعضهم أنها فصيحة ولكنها لغية ، مثل بلعنبر وبلحارث وبلهجيم مكان بني العنبر وبني الحارث وبني الهجيم .

(٢) الموازنة ١٢ وما بعدها ، أعيان الشيعة ١٩ : ٩٥ ـ ٩٧.

(٣) الديوان ٤٥ . ـ ذو الطائية معناها « الذي» ، وهي من بقايا اللهجة الحميرية (العربية الجنوبية ، لغة اليمن) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة تأليف اغناطيوس غويدي ، ص ٦ . و« ذو » هذه تلزمها الواو في الرفع والنصب والخفض (شرح التبريزي ١ : ٢٣٣) .

(٤) الديوان ٢٤٦ .

المتعصّبون له والمتعصّبون عليه

لم يعرف الأدب العربي شاعراً أثار جدالاً صحيحاً في حياته كأبي تمام. اذ اندفع الادباء الى ديوان الشاعر ينشرون حسناته او سيئاته، ويجادلون فيها حقاً وباطلاً.

عرفنا رواة الأدب يفضلون امرأ القيس على سائر شعراء الجاهلية، او يرفعون زهيراً فوق النابغة، او يحكمون لأبي نواس على مسلم بن الوليد او لمسلم على ابي نواس في جمل عارضة واحكام عامة قد تستهويك فتصدقها او لا ترضيك فتمر بها غير آبه ولا حافل؛ وكذلك كان شأن الناس في الانتصار لجرير والفرزدق والاخطل. اما الصراع حول مقام ابي تمام فلا يمكنك ان تشهده مكتوف اليدين ولا تستطيع ان تقول إنّ الناس كانوا يتجادلون في لا شيء.

قد يسبق الى الذهن ان الناس انقسم رأيهم في المتنبي، أو انه كان للمتنبي خصوم، وأنه شغل الناس؛ لكنا اذا درسنا الأحوال التي نشأت فيها خصومة الناس للمتنبي وجدناها تختلف عن تلك التي اثارت الجدل في شعر ابي تمام: وجدنا الذين يناهضون ابا تمام يناهضونه بشاعر معين هو البحتري؛ ثم يجعلون الشاعرين مدار البحث، ومثار الجدال.

المتحاملون على أبي تمام

اذا احببت ان تهتدي الى السر في شدة الحملة على ابي تمام بين الشعراء من

معاصريه خاصة فخذ رواية ابي الفرج الاصفهاني [1] « ما كان احد من الشعراء يقدر ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام . فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه ... » ولم يكن هؤلاء الشعراء نفراً لا عدد لهم او لا نبوغ فيهم ؛ فقد قال ابن رشيق [2] : « وليس في المولدين اشهرُ اسماً من الحسن ابي نواس ؛ ثم حبيب والبحتري ، ويقال إنهما اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ... » واما البحتري ، وهو اشهر المولّدين بعد ابي تمام فقد اعترف بتقديم صاحبه فقال : « ان ابا تمام لَلرَّئيس والاستاذ . والله ، ما اكلت الخبز إلاّ به » — « وكان اصل نباهة البحتري ان صار الى ابي تمام في حِمص فعرض عليه شعره فاستحسنه ابو تمام ، وكتب الى اهل معرة النعمان وشفع لـــه اليهم ... » [3] — ثم لم تُعرف للبحتري نباهةٌ وشهرة حتى مات ابو تمام .. اما الآمدي فينكر ان يكون البحتري اتصل بأبي تمام اتصالَ من يستفيد او يتوصل الى وجاهة ونباهة [4] .

ثم ان العلماء ذلّلوا أشعارَ الأوائل ولم يحفلوا بالمحدَثين فجهلوا الاجابة عن أشعارهم فعمدوا الى الطعن عليهم ، وخصوصاً أبا تمـــام لأنه أقربهم عهداً وأصعبهم شعراً [5] .

ومن أشهر الذين ناصبوا أبا تمّامٍ العداء في حياته دِعبِل بن علي الخُزاعيّ (ت ٢٤٦ هـ) كان يثلبه ويكذب عليه ويضع عليه الاخبار وينسبه الى سرقة معاني الشعراء [6] . وقد ادّعي دعبل ايضاً أن أبا تمام كان يسرق منه [7] . وبلغ من تعصبه على أبي تمام انه أُنشد يوماً شعراً ثم سئل رأيَه فيه فقال : « هو ، والله ، أحسن من عافية بعد يأس » . فلما قيل له : « إنه لأبي تمام » ، قال : « لعله سرقه! » [8]

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٨ .
(٢) العمدة ١ : ٦٣–٦٤ .
(٣) الاغاني ١٨ : ١٦٨، ١٦٩ .
(٤) الموازنة ٣–٤ .
(٥) راجع اخبار ابي تمام ١٤–١٥ .
(٦) أخبار أبي تمام ٦١، ١٨١–١٨٢، ١٩٩–٢٠٠، ٢٤٤، راجع ٢٠٢ .
(٧) أخبار أبي تمام ٦٣–٦٤؛ غ ١٥ : ١٠١–١٠٢ .
(٨) غ ١٥ : ١٠٢ .

و لكن لما توفي أبو تمام عاد دعبل فمدحه [1] .

وكان من أعداء أبي تمام أيضاً ابراهيم بن المدبّر (ت ٢٧٠ هـ) ، كان يتعصّب على أبي تمام ويحطّه عن رتبته ، ويستجيد شعره ولكن لا يوفّيه حقه [2] . وكان ابن المدبر أديباً شاعراً ومن ذوي الجاه والمتصرفين في كبار الاعمال في الدولة العباسية . وقد كان صديقاً للبحتري معجباً به وبشعره ، وكان البحتري يمتدحه [3] .

وكذلك كان ابن الاعرابي ، أحد أئمة اللغة ، شديد العصبية على ابي تمام ، قال مرة عن شعر أبي تمام : « إن كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل »[4] ، يقصد لِما فيه من التكلف .

أنصار أبي تمام وخصومه المتأخرون

بعدئذ مضى الأدباء يؤلّفون في فضائل أبي تمام وفي مثالبه . فمن الكتب التي أُلّفت في فضائل أبي تمام [5] كتاب أخبار أبي تمام للصولي ، وأخبار أبي تمام والمختار من شعره للسميسطائي ، وكتاب للمرزباني ، وأخبار أبي تمام ومحاسن شعره للخالديّين وكتاب سرقات البحتري من أبي تمام لأبي ضياء النصيبي[6] . ومن الذين ألّفوا في مثالب أبي تمام أبو القاسم الحسن بن بِشر الآمدي ، وأبو العباس أحمد بن عبيدالله القُطْربلي ورجل اسمه عبدالكريم .

وغير زمن لم يكن فيه بين يدي الادباء والدارسين سوى كتاب الموازنة للآمدي .

ولقد فطن بعض المؤلفين لتحامل الآمدي على ابي تمام ومحاباته للبحتري فقال

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٢ .

(٢) أخبار أبي تمام ٩٧، ١٧٥ .

(٣) أخبار البحتري ٧٦، ١١٣-١١٤، ١١٨، ١٢٤-١٢٦، ١٣٤، ١٥٧.

(٤) أخبار أبي تمام ١٧٥-١٧٦ ، راجع ١٧٧ ، ثم ٢٤٤ وأخبار البحتري ١٤٧ .

(٥) الفهرست (القاهرة) ١٩٠-١٩٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٠، ٢٤١ .

(٦) الفهرست ٢١٣.

ابن النديم : « ان في الآمدي تحاملاً على ابي تمام » ، ونسبه الشريف المرتضى الى الغلو في انتقاد ابي تمام [1] . ويخبرنا ياقوت [2] ذلك بتفصيل واف فيقول : ولأبي القاسم (الامدي) تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها ، منها كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري ... وهو كتاب حسن وان كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب الى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على ابي تمام فيما ذكره ... فانه جد واجتهد في طمس محاسن ابي تمام وتزيين مزدول البحتري ... » وياقوت لا ينكر فضائل البحتري بل يقول : « لو انصف (الآمدي) وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من ابي تمام » .

وفي العام ١٩٣٧ صدر كتاب أخبار أبي تمام لأبي بكر محمد بن يحيي الصولي [3] فأصبح بين يدي الدارسين لحياة أبي تمام وشعره — لحسن حظ أبي تمام وحسن حظ الأدب — مصدر يمثل وجهة نظر المنصفين لأبي تمام في وجه موازنة الآمدي .

دفاع أبي الفرج

لابي الفرج الاصفهاني دفاع عن ابي تمام يتكافأ فيه الأدب الرفيع والخلق النبيل . قال ابو الفرج [4] :

« وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ؛ وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ،

---

(١) الشهاب في الشيب والشباب (قسطنطينية ١٣٠٢هـ) ص ٤ وما بعدها .

(٢) معجم الادباء ٣ : ٥٩ .

(٣) نشره وحققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦هـ—١٩٣٧م) . حينما كنت في ألمانية عثرت على هذه المخطوطة في المكتبة العامة في برلين (رقم مخطوطات شرقية ١٩٣٢ — ٢٣) فاستخرجت لها صورة وعكفت على دراستها . ففي يوم من الأيام رأيت في القسم الشرقي من مكتبة برلين السيد نظير الاسلام يعمل على المخطوطة نفسها وأخبرني أنه يعمل على المخطوطة لجعلها أطروحة له ثم قص علي قصة أديبين مصريين عرفا بالمخطوطة وكادا يسبقانه في نشرها . بعدئذ سألاه أن يضم جهوده الى جهودهما .

(٤) الاغاني ١٥ : ٩٦ ؛ ١٢ : ٦٧ (بولاق ١٢ : ٧٠) .

ويستعملون القِحَة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزَه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب . وهذا مما يتكسب به كثير من اهل هذا الدهر ويجعلونه . وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معائبهم . سبباً للترفع وطلباً للرئاسة . وليست اساءة من اساء في القليل واحسن في الكثير مسقطةً احسانَه. ولو كثرت اساءته ايضاً ثم احسن لم يُقل له عند الاحسان اسأت ، ولا عند الصواب اخطأت ! والتوسط في كل شيء اجمل . والحق احق ان يتبع ...

« ... وقد فضل ابا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون ، — وان جدوا — آثاره ؛ وما رأي الناس بعده الى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا شكلا ... وكان في ابن مهرويه تحامل على ابي تمام لا يضر ابا تمام هذا منه ، وما اقل ما يقدح مثل هذا في مثل ابي تمام » .

مهاجاته الشعراء

هجا أبا تمام شعراء كثيرون . فرد أبو تمام على بعضهم ولم يلتفت الى بعض. من هؤلاء جميعاً [٢] دعبل بن علي ومخلّد بن بكّار الموصلي وعبد الصمد بن المعذّل الشاعر البصري وشاعر اسمه الوليد . ومنهم خالد الكاتب وعبدالله الكاتب ومحمد بن يزيد ، ويوسف السرّاج الشاعر المصري وعتبة بن أبي عاصم ، ومحمد ابن وهب الحِمْيري الشاعر ومحمد بن الحسن الشاعر .

---

(١) راجع أخبار أبي تمام ٢٤٥ ، ورثا ابن مهرويه أبا تمام (ص ٢٧٩) .

(٢) راجع في ما يلي كله : الاغاني ٢١ : ٣٤ ؛ وفيات ١ : ١٥٠ ؛ العمدة ١ : ٧٠ ؛ ديوان خ ٤٨٥ — ٤٨٧ ، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤ الخ ؛ أخبار أبي تمام ٣٤، ٢٣٥—٢٤٣، ٤٢١—٤٢٢ .